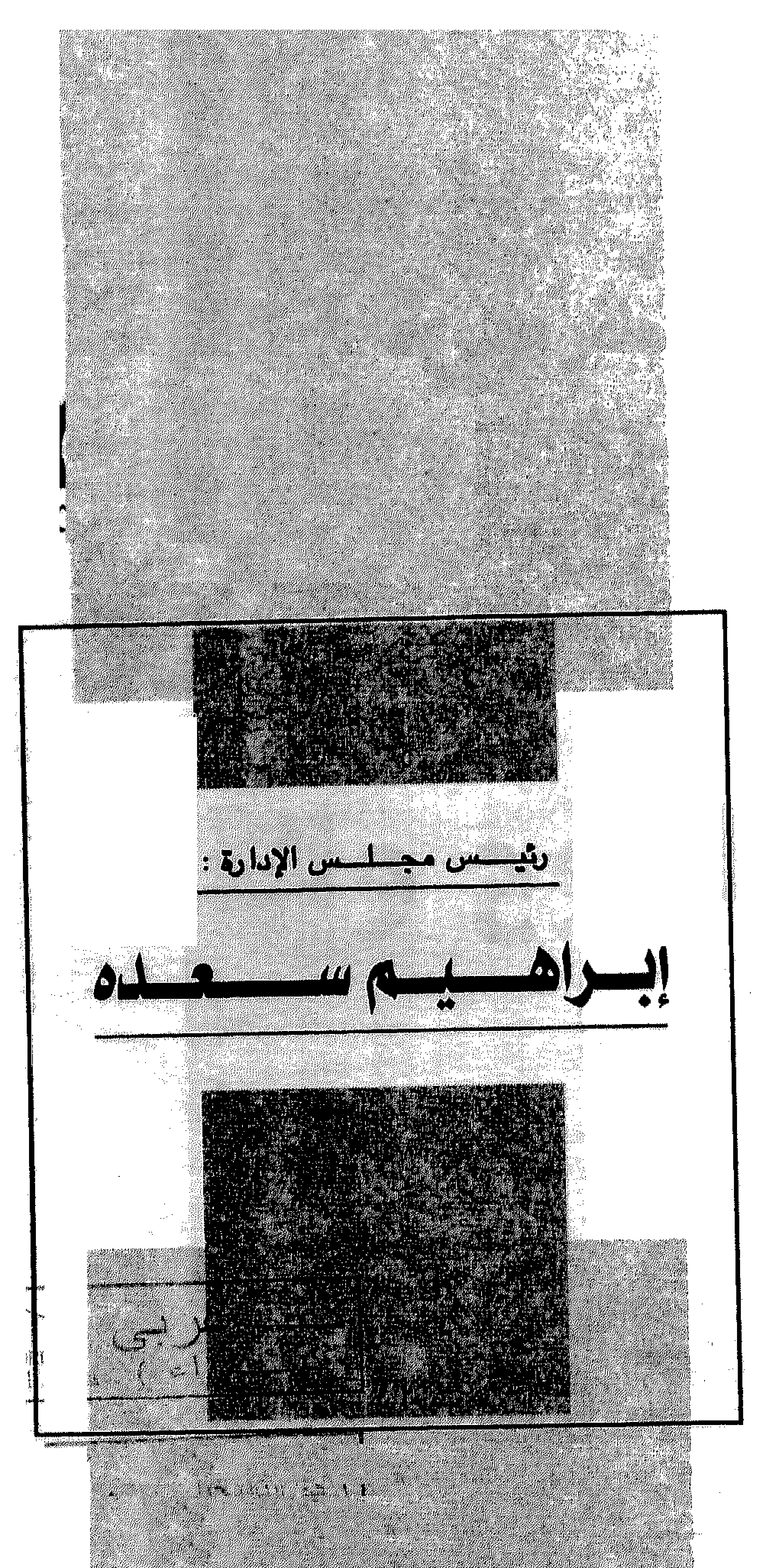


قطاع الثقافة

الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود

الروح والجسد

دكتور مصطفى محمود



رئيس مجلس الإدارة :

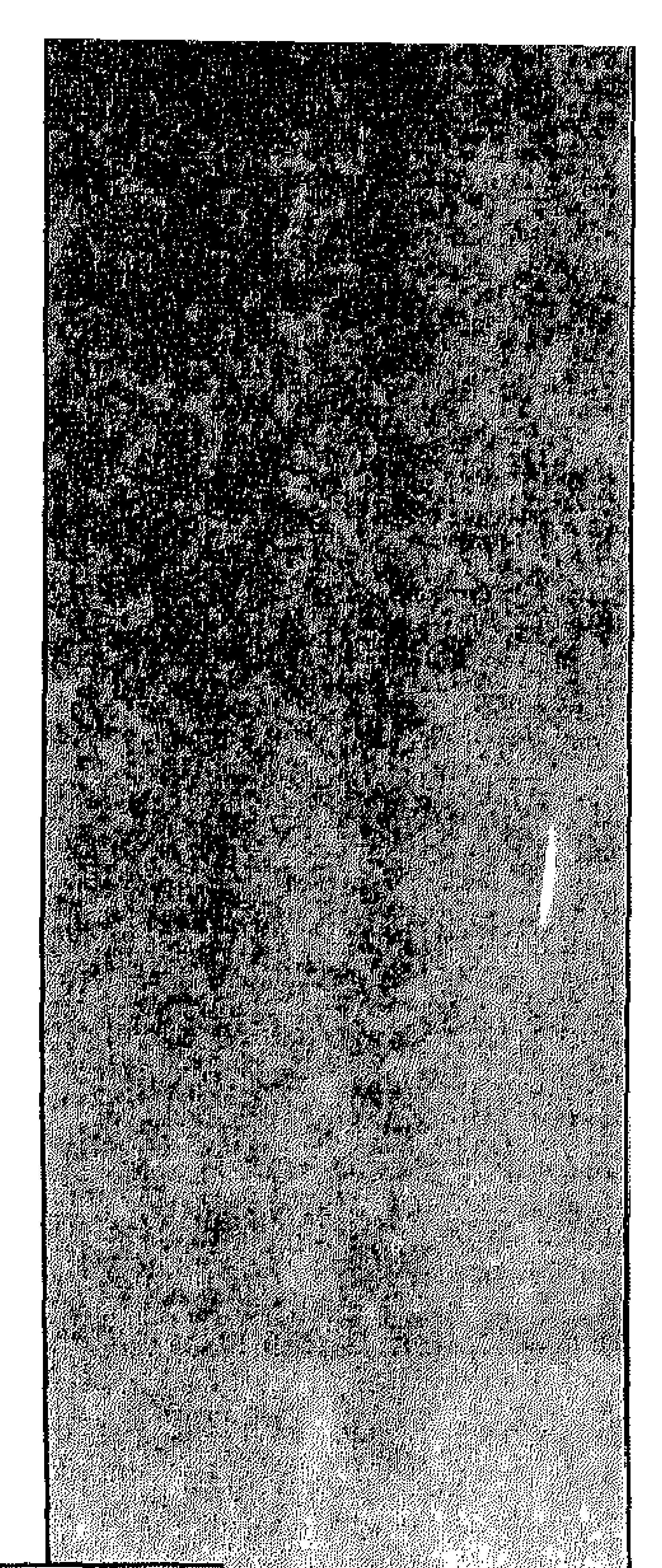
إبراهيم سعده

• العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom..org\ketab
• البريد الالكترونى
akhbar el yom@akhbarelyom. org

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

د. مصطفى محمود

الروح والجسد



تصـــميم الغـلاف :

د.عـبـدالكريم مـحـمـود

الصمت

نحن نتبادل الكلمات والحروف والعبارات كوسائل للتعبير عن المعانى وكأدوات لكشف كوامن النفوس .. ونتصور أن الحروف يمكن أن تقوم بذاتها كبدائل للمشاعر ، ويمكن أن تدل بصدق على ذواتنا ومكنوناتنا .

والحقيقة أن الحروف تحجب ولا تكشف .. وتضلل ولا تدلل .. وتشوه ولا توضح .. وهى أدوات التباس أكثر منها أدوات تحديد ..

يقول الحبيب لحبيبته :

– أحبك .

وهو يقصد بذلك التعبير عن حالة وجدانية خاصة جداً وذاتية وجديدة عليه ، فلا يجد إلا كلمة هى صك مستهلك تهرأ من كثرة الاستعمال .. كلمة أصبحت ماركة مسجلة لأردأ أنواع البضائع .. كلمة حولتها الأغانى المبتذلة والهزليات المسرحية إلى مبولة أو

بالوعة ، أو فى أحسن الأحوال إلى منشفة لتجفيف ما ينضح من العرق فى حالات فسيولوجية عديدة ومتناقضة .

ولكنه لا يجد غيرها .

فإذا حاول أن يستخرج من قاموس الحروف ومعجم العبارات كلمات أخرى ، فإنه لا يجد إلا المجاز والاستعارة والبيان والبديع وضرب الأمثلة .. فيقول لحبيبته إنه يحبها كما تحب الوردة ندى الفجر ، أو كما تحب ظلمة الليل شعاع الشمس ، أو كما تحب صغار العصافير أعشاشها .. وهو كلام فارغ آخر يترجم الحالة الخاصة الفريدة إلى سلسلة من البدائل المزورة ، ويحول الشعور البكر إلى ثرثرة جوفاء لا تدل على شىء .

ولو أنه صمت لكان صمته أبلغ ..

وللصمت المفعم بالشعور حكم أقوى من حكم الكلمات .. وله إشعاع وله قدرته الخاصة على الفعل والتأثير ..

والمحب الصامت يستطيع أن ينقل لغته وحبه إلى الآخر .. إذا كان الآخر على نفس المستوى من رهافة الحس ـ وإذا كان هو الآخر قادراً على السمع بلا أذن والكلام بلا نطق .

والإنسان معجزة المخلوقات ..

وهو ليس آلة كاتبة .. ولا إسطوانة ناطقة .

وهو أكثر من مجرد آليات جسدية ..

هو عقل وروح ووجدان ..

وذاته مستودع قوى وأسرار إلهية .

وهو يستطيع أن يتكلم بلا نطق .. ويسمع بلا أذن .. ويرى بلا عيون .

ونحن نرى فى الحلم بلا عـيون ونسمـع بلا آذان ونجرى بلا سيقان ..

وقد رأى المبصرون بعيون طه حسين ما لم يروا بعيونهم ..

وفى رؤى أبى العـلاء وأشـعـاره مـا لا تتطاول إليـه عـيـون المبصرين أصحاب العيون .

والحـقائق الـعاليـة تقـصر دون بلـوغهـا الحـروف والعيـون والآذان .. وإنما خلقت الحروف للتـعبير عن أشتـات العالم المادى وجزئياته ، وهى مجرد رمـوز ومصطلحات ونظائر لما نرى حولنا من شجر وحصى ورمل وبحر وتلال ووديان وجبال .

أما عالمنا الداخلى .. وسماواتنا الداخليـة .. وسرائرنا العميقة .. فتقصر دونها الحروف ولا تصورها كلمات ..

وكلما كـان شعـورنا حمـيماً ، وكلمـا كان حـبنا متغـلغلاً فى شغاف القلب مـالكاً ناصية السر ، ساكناً لب الفؤاد عـجز اللسان وتضعضعت الكلمات وتقطعت العبارات .

والحقائق الإلهية أكثر استحالة على الألفاظ .

هنا الألفاظ تتـحول إلى جلاميد صـخر لا تصلح على الإطلاق لوصف ذات الله المطلقة .

والألفـاظ فى رحاب الله .. أسـتار وحـجب .. والكلمة حـائل .. والعبارة عائق .. والاصطلاح عقبة .

يقول الله سبحانه فى مخاطباته القدسية للصوفى الصالح محمد بن عبد الجبار :

كل ما فوق وتحت وعن يمين وشمال وكل ما بدا ليس منى .

الحروف لا تدل علىَّ .. الكلمات لا تدل على أوصافى ..

أوصافى التى تحملها العبارة هى أوصافك بمعنى ..

وحينما أقول إنى أنا الرحيم ، فإنك تفهم رحمتى برحمتك وما رحمتى يا عبدى كرحمتك .

إنما أوصافى من وراء العبارة .

ومن أوصافى إنى « الأبد » .. ولا عبارة فى الأبد ..

أنا الذى ليس كمثله شىء ..

فيا مختلف لا تستدل علىَّ بمختلف فتخطىء الطريق إلى معرفتى ..

إنما يكون تعرفى إليك بلا نطق وبلا عبارة .

وإذا جاءك وصفى بلا عبارة ، فقد جاءتك الحقيقة .

وإذا وقفت فى حضرتى ، فسترى الحروف أصناماً والعبارات أوثاناً ..

ويقول الصوفى الصالح فى دعائه وابتهاله :

« يا رب لا تَذْرُنى بمذراة الحروف فى معرفتك » فيشبه الحروف بالمذراة التى تذرو كل شىء فلا توصل إلى معرفة حقة ..

هذا هو عالم السر والطلسم الذى يتم الاتصال فيه بالروح

بدون مواصلات المادة وبدون أداة الكلمة ..

يقول الله سبحانه فى مخاطباته الإلهية للصوفى محمد بن عبد الجبار :

الحرف حجاب .

الحرف يعجز عن أن يخبر عن نفسه ، فكيف يخبر عنى .

أنا خالق الحرف وما يخبر عنه الحرف فأنا من وراء الاثنين .

اخرج عن الحرف ، اخرج عن نفسك ، اخرج عن اسمك ، اخرج عن كل ما بدا تكن فى حضرتى . أَصْمت منك الصامت ينطق الناطق بالضرورة « والناطق هنا الروح » .

وهذا هو عالم المطلقات الذى لا تحلق إليه كلمات ولا تسمو إليه ألفاظ .

ومعدن الحب الشفيف العالى هو من نفس معدن هذه المطلقات ولغته من لغتها .. فهو من خصائص الروح .. وهو فى صميمه انعطاف روح قبل أن يكون انعطاف جسد ، وحينما تبلغ المشاعر إلى تلك المنطقة يسكت اللسان وتصبح اللغة صمتاً .

ولهذا أحب الصمت وأوثر الصمت كلما شعرت بهذا القرب الحميم نحو إنسان .. ذلك القرب الذى يتسلل إلى الشغاف ويسكن الحنايا دونما صخب ودونما ضجيج ودونما اضطراب .

فهنا لا وجود للانفعال المبتذل الذى تتكلم عنه الأغانى ولا وجود للأوجاع والبكائيات .

ولا مكان لبلاهة قيس وأشعاره .

ولو أنى استعرت تلك الكلمات القديمة لأعبر بها عن ذلك القرب الحميم لكنت ثرثاراً أجوف أتكلم عن رجل آخر غيرى ..

فهنا شعور جديد تماماً وخاص جداً وذاتى .

هنا حضور مؤنس يشيع الدفء والبهجة الهادئة والإحساس بالمعية التى تطرد الوحشة والوحدة ..

هنا كل شيء هامس ، خافت ، بلا صوت وبلا صورة وبلا لفظ وبلا غرض وبلا مأرب ..

فما أبلغ الصمت ..

وما أقدره على التعبير ..

الصراخ

نحن فى عصر الصراخ ..

مدنية اليوم اسمها بحق .. مدنية الصراخ .

علاقة الحب صراخ ..

وعلاقة الزواج صراخ ..

وعلاقات المجتمع صراخ طبقى .

وعلاقات الدول صراخ سياسى .

والشعارات صراخ فكرى .

والمذاهب تحريض علنى للأغلبيات على الأقليات والأقليات على الأغلبيات ولافتاتها المرفوعة هى الصراخ والهتاف والصياح والنباح .

والبيوت التى ترفع لافتة الحب على بابها .. تعيش حياة هى

أقرب إلى الصراع على السلطة منها إلى تعاون المحبة والرحمة بين أزواج وزوجات .. حياة أقرب إلى صراخ يومى وتنازع حكم ورأى فى كل شىء ، وكأنما المطلب الذى يصحو به كل واحد هو : مَنْ يحكم اليوم .. مَنْ يسود .. مَنْ يمسك باللجام ؟!

وإذا أعوزت المرأة مبررات السيادة والقيادة التمستها بالغيرة ، واتخذت من الشك ذريعة حصار وسبباً لإيداع الزوج السجن ، وإعلان أحكام الطوارىء فى البيت ليل نهار ، ومصادرة الخطابات والتسمع على التليفونات وتفتيش الملابس الخارجية والداخلية .. فإذا لم تعثر على جسم الجريمة ولم تضبط أحرازاً .. فإنها تعلن أنه لابد من تفتيش الدماغ وكسرها إن أمكن بالقبقاب أو بالحجج الفلسفية حسب درجة ثقافتها وحسب حظها من التربية فى بيت أبيها .. فإذا لم تجد شيئاً فى دماغه .. فلابد إذن أنه كان هناك شىء فى الماضى قبل أن يتزوجها .. لابد أنه كان على علاقة ما فى يوم ما .. فهذا شأن جميع الرجال الملاعين .. وجميع الرجال ملاعين .. إلى أن يثبت العكس .. ولا يمكن أن يثبت العكس أبداً .

المهم أن يصل الحوار إلى صراخ وعويل ولطم وندب .. ومرة أخرى تتوقف ردود الفعل على حظ الزوجة من الثقافة ومن تربية البيت .

ودائماً فى كل زواج هناك شىء ناقص .. إذا وجد الحب صرخت الزوجة لأنها لا تجد كفايتها من المال ، وإذا وجد المال

صرخت لأنها لا تجد كفايتها من الحب ، وإذا وجد الاثنان صرخت لأن الزوج له ماض ، وإذا وجد كل شيء التمست سبباً للنكد في حياة الأولاد .. المهم أن تصرخ وتفش الغل .. ودائماً هناك غل بسبب وبدون سبب وكأنما الغل هو التراث الحضارى المشترك للنساء جميعاً .

صدق الله العظيم حينما قال فى قرآنه عن أهل الجنة :

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ..(٤٣)﴾ [الأعراف]

لأن الغل هو السر فى الجحيم الذى نعيشه .

الغل فى المرأة وفى الرجل وفى الدولة .

حتى الغل فى الضحك هو عنوان تعاسة .. الضحك المغلول والتهريج المجلجل والمرح الوحشى هو الآخر عنوان افتعال .. ومحاولة مصطنعة لتغطية أصوات القلق والحزن الدفين واليأس الأكّال فى داخل القلب بأجراس الضحك وبقرع الكؤوس المخمورة .

والسعادة الحقة لا يمكن أن تكون صراخاً .. وإنما هى حالة عميقة من حالات السكينة تقل فيها الحاجة إلى الكلام وتنعدم الرغبة فى الثرثرة .. هى حالة رؤية داخلية مبهجة وإحساس بالصلح مع النفس والدنيا والله ، واقتناع عميق بالعدالة الكامنة فى الوجود كله ، وقبول لجميع الآلام فى رضا وابتسام .

والسعادة الحقة نوع من أنواع شهود الله فى آيات عظمته ، أو

كما يقول الصوفى محمد بن عبد الجبار : هى شهود « ما لا ينقال » .

يقول لك ذلك الصوفى :

إن لم تشهد « ما لا ينقال » تشتت بما ينقال . وتوزعت بين آلاف المقولات والمغريات ، وتعلقت بما لا يدوم وبما لا يثبت للحدثان .. كما تتعلق الموجة بالموجة . وكما يتعلق المتحرك بالمتحرك ، والناقص بالناقص ، والزائل بالزائل ، والمنهدم بالمنهدم .. وهو مثل لجوء الخراب إلى الخراب والخراب لا يصلح ملجأ .. ولهذا ينتهى أمرك إلى الخيبة والفشل .

ولهذا لا يصلح التعلق إلا بالله .. لأنه هو وحده الثابت الصامد « الصمد » الذى لا يتغير ولا يتقلب ولا تلحق به العوارض .

وبين يدى الله . السكينة هى الحال والصمت هو المعرفة ، لأن المطلق لا تسعه عبارة ولا تحيط به حروف .. فالجهل به هو عين معرفته والصمت هو عين إدراكه ..

ولهذا يرى الصوفى محمد بن عبد الجبار أن الحب بمعناه المتداول وهو « أن تحتل امرأة عقل رجل وتسد عليه جميع أقطاره وتصبح شاغله ومطلبه الوحيد » هو باب من أبواب الكفر والشرك.

ويقول الله للصوفى فى مخاطباته :

إن جعلت لغيرى عليك مطالبة أشركت بى ، فاهرب هربين :

هرباً من الغريم وهرباً من يدى .

ويقول الإمام الغزالى نفس الرأى فى هذا اللون من الحب الدارج .. إنه سقوط بالهمة .. لأنه تعلق بهواء .. تعلق الزائل بالزائل .

ولهذا وصف القرآن العلاقة السوية بين الرجل والمرأة بأنها المودة والرحمة ، ولم يسمها حباً ، وجعل الحب وقفاً على علاقة الإنسان بالله ، لأنه وحده جامع الكمالات الجدير بالحب والتحميد ، وجاءت لفظة الحب فى القرآن عن حب الله وحب الرسول .. وجاءت مرة واحدة عن حب المرأة على لسان النسوة الخاطئات حينما تكلمن عن امرأة العزيز وفتاها الذى « شغفها حباً » .. وهو حب رفضه يوسف واستعصم منه واستعان بربه ، وآثر عليه السجن عدة سنين .

وهى جميعاً مؤشرات تكشف عن سبب الإحباط العام والتعاسة فى مجتمعات العصر وبيوته .. بسبب حب هو كفر ، وزواج هو أنانية ، وصراع طبقى هو حقد ، ومذاهب هى انتقام ، وشعارات هى كذب .. وعالم ضاعت منه المودة والرحمة ، وافتقد الإيمان بالملجأ الحقيقى ، وأصبح شعاره لجوء الخراب إلى الخراب .

لجوء الشباب إلى الجنس والمخدرات الذى لا يختلف كثيراً عن لجوء أمريكا إلى العنف ، ولجوء اليهود إلى العنصرية ، ولجوء

الطبـــقـــات المطـحـــونة إلى أوهـام المذاهب المادية ووعـــودها وتحريضـها .. ثم مـحاولة إغراق الخيبة النهائـية والفشل النهائى فى شعار ملفق أو دعاية كاذبة أو مـبار:ٰ كرة أو صـراع ثيران أو طبل وزمر .. ثم يعـود فيغـرق الفرد يأســه فى حب أو كأس ، أو نوبة غضب أو رفض لكل شىء ، أو اتهام للكون وخالقه بالعبثية ، مع أن الكون كله من أكـبر مـجرَّة إلـى أصغـر ذرة ينطق بالنظام والإحكام والإبداع ويشـهد بالخطة .. وبأنه لا شـىء فيه خُلِقَ عبثاً .

ويقول أصحابـنا الماديون إن الكلام الكثير فى الله والدين ترف ليس هذا وقته ولا أوانه .. ويقولون : لسنا ملحدين ولا دعاة إلحاد إنما نقـول فـقط إن هذه المسـائل غـيـر مطروحـة ، وإن هذا ليس أوانها .. وأقول لهم أنا : بل هى مطروحة بشدة وهذا أوانها .

أقول لهم : إن هذا الصـراخ والصياح وخـراب النفوس وتمزق الأرواح سببـه الأول اعتقاد أصـحابها أنهم يعيشـون فى عالم بلا إله .. وأنهم يبحثـون عن عدل دون اعتقـاد فى عادل .. ويحاولون النهوض بحياة يعتقدون أن مصيرها التراب .

وإذا صدقنا معهم أننا لا نملك إلا لحـظتنا وحياتنا هذه ، فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نـتقاتل عليها فى بشـاعة ، ثم نموت كلنا وندفن السيـد إلى جوار العـبد وصـاحب العـمارة إلى جـوار بوابها بدون معنى لكل تلك الضراوة والبشاعة التى تقاتلنا بها .

اعتقاد هو الخراب بعينه .

وحماسة تهزم نفسها بنفسها وتنقض نفسها بنفسها ، ولا تلد إلاَّ نفوساً شائهة تصرخ وتصرخ بلا مقتض وبلا موجب مفهوم .

وقديماً قالوا إن البيوت السعيدة لا صوت لها .. ولا أحد يتخذ منها مادة للكلام ولا أحد يروى عنها قصة أو يكتب رواية أو ينتج فيلماً .. وفى رواية الحب التقليدية يسدل الستار دائماً عندما يصل الحبيب والحبيبة إلى المأذون ، لأن المؤلف يتصور حينئذ أن الكلام انتهى ، وأنه لم يعد هناك ما يقال ، لأن السعادة بدأت والسعادة عنوانها الصمت .

فأين هى تلك البيوت السعيدة الآن ؟

ما أقلها ؟

عن الروح والجسد

سر من أسرار السعادة هو انسجام الظاهر والباطن فى وحدة متناسقة متناغمة .

إن غروب الشمس وانسدال العتمة فى حنان ، والنظام المحكم الذى يمسك بالنجوم فى أفلاكها ، وإطلالة القمر من خلف السحاب وانسياب الشراع على النهر ، وصوت السواقى على البعد ، وحداء فلاح لبقراته ، ونسمات الحديقة تلف الشجرات التى فضضها القمر كوشاح من حرير .. إذا اقترنت هذه الصورة الجميلة من النظام والتناسق بنفس تعزف داخلها السكينة والمحبة والنية الخيرة .. فهى السعادة بعينها .

أما إذا اقترنت هذه الصورة من الجمال الخارجى بنفس يعتصرها الغل والتوتر ، وتعشش فيها الكراهية ، وتنفجر داخلها قنابل الثأر والحسد والحقد ونوايا الانتقام .. فنحن أمام خصومة وتمزق وانفصام . نحن أمام هتلر لا حل له إلا أن يخلق حرباً

خارجية تناسب الحرب الداخلية التى يعيش فيها .. نحن أمام شقاء لن يهدأ إلا بأن يخلق شقاء حوله .

إن السعادة فى معناها الوحيد الممكن هى حالة الصلح بين الظاهر والباطن ، بين الإنسان ونفسه ، بين الإنسان والآخرين وبين الإنسان وبين الله . فينسكب كل منهما فى الآخر كأنهما وحدة ، ويصبح الفرد منا وكأنه الكل .. وكأنما كل الطيور تغنى له وتتكلم لغته .

أما الصورة الدارجة للسعادة التى تتداولها الألسن عن شلة الأنس التى تكرع الخمر فى عوامة وحولها باقة من النساء الباهرات العاريات ، وأجساد تتخاصر ، وشفاه تتلاثم فى شهوة مشتعلة وأفواه تتنفس الحشيش فى خدر وتلذذ .

هذه الصورة هى حالة شقاء وليست حالة سعادة ، فنحن مع نفوس تركت قيادها للحيوان الذى يسكنها ، وكرست حياتها لإرضاء خنزير كل همه أن يأكل ويضاجع .

هى حالة عبودية .. حالة غرق للإنسانية فى مخاط الحيوانية اللزج .

ومثلها حالة السعداء الآخرين الذين يتسلق بعضهم على بعض جرياً وراء المناصب ، والآخرين الذين يكدسون المال والطين والعقار ، ويلتمسون السلطة والقوة بكل السبل .

فالسعادة لا يمكن أن تكون فى المال أو القوة أو السلطة بل هى فى « ماذا نفعل بالمال والقوة والسلطة ؟ » .

فى النفس التى تستخدم المال والقوة والسلطة .

السعادة ليست فى البيت المفروش بالسجاجيد العجمى والشينوا والكريستال ولكن فى النفس التى تسكنه .

« والخارج » لا يستطيع أن يقدم لنا شيئاً إذا كنا نحن من « الداخل » .. من نفوسنا .. غير معدين للانتفاع بهذه المنحة الخارجية السخية .. وإذا لم نكن فى صلح مع هذا الخارج وفى تكيف معه .

وفى قصة لتولستوى يقول الإقطاعى للفلاح الطامع فى أرضه سوف أعطيك ما تشاء من أرضى . تريد عشرة فدادين .. مائة فدان .. ألفاً .. لك أن تنطلق من الآن جرياً فى دائرة تعود بعدها إلى مكانك قبل أن تغرب الشمس ، فتكون لك الدائرة التى رسمتها بكل ما اشتملت عليه من أرض .. شريطة أن تعود إلى نقطة البدء قبل غروب الشمس ، أما إذا غربت الشمس ولم تعد فقد ضاعت عليك الصفقة .. ويفكر الفلاح الطماع فى دائرة كبيرة تشمل كل أرض الإقطاعى .. وهو مطمع يحتاج منه إلى همة وسرعة قصوى فى الجرى حتى يحيط بها كلها فى الساعات القليلة الباقية على الغروب .

ويبدأ فى الجرى وكلما تقدم الوقت وسع من دائرته اغتراراً بقوته وطمعاً فى المزيد ، وتكون النتيجة أن تتقطع أنفاسه ويسقط ميتاً قبل ثوان من بلوغ هدفه .. ثم لا يحصل من الأرض إلا على متر فى متر يدفن فيه .. وهذه هى حاجة الإنسان الحقيقية ، من

الأرض بضعة أشبار يرقد فيها .. وهو ينسى هذه الحقيقة ، فيعيش عبداً لأهواء وأطماع وأوهام تضيع عليه حياته .

وقد فطن تولستوى إلى هذه الحقيقة ، فوزع أرضه على الفلاحين وهرب من بيته الأنيق الدافىء وسكن فى كوخ حقير مع الفقراء المعدمين .

وكذلك فعل غاندى الذى عاش على عنزة يحلب لبنها ويغزل صوفها .

وكذلك فعل المسيح الذى عاش بلا بيت وبلا زوجة وبلا ولد . لا يملك إلا ثوبه .

وهؤلاء هم السعداء العظام الذين جاءوا ليعلِّموا الناس كيف تكون السعادة .

قال لنا بوذا إن السعادة فى قمع الرغبة وردع النفس وكبح الشهوة ، بذلك وحده يكون العتق الحقيقى للروح وتحررها من سجن الجسد .

وقال لنا المسيح : « مَنْ أهلك نفسه فى سبيلى وجدها » .

وقال طالوت لجنوده فى القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

والله يقول فى حديث قدسى إلى الصوفى ابن عبد الجبار : « يا عبد جعت فأكلت .. ما أنت منى ولا أنا منك ، عطشت فشربت .. ما أنت منى ولا أنا منك . إنما أظهرت الشهوات حجاباً عليك لأمتحن محبتك ، فإن اخترتنى دون جميع شهواتك كشفت لك عن ذاتك

وما عدت أسترك بشهوة .. إنما الشهوة تأتيك من ناحية جسدك .. أما ذاتك فقد خلقتها خالصة مبرأة لا تميل إلا إلىَّ وحدى » .

وكلها إشارات ورموز إلى الحقيقة .

فنحن لم نوهب الشهوة لنشبعها أكلاً وشرباً ومضاجعة وتكديساً للمطامع والثروات .. وإنما وهبنا الشهوة لنقمعها ونكبحها ونصعد عليها كما نصعد على درج السلم .

فالجسد هو الضد الذى تؤكد الروح وجودها بقمعه وكبحه وردعه والتسلق عليه .

وبقمع الجسد وردعه وكبحه تسترد الروح هويتها كأميرة حاكمة وتعبر عن وجودها وتثبت نفسها وتستخلص ذاتها من قبضة الطين ، وتصبح جديرة بجنتها وميراثها .. وميراثها السماء كلها ، ومقعد الصدق إلى جوار الله .. وهذه هى السعادة الحقة .

أما إذا غلب حكم الطين وانتصرت الجبلة الحيوانية وقَرَنَ الإنسان ذاته الشريفة بالمادة الطبيعية فقد هبط بنفسه إلى سجن الضرورات وإلى غلظة الآلية وإلى نار الطبيعة التى يأكل بعضها بعضاً وأصبح منها وفيها ولها . وتلك هاوية التعاسة والتمزق والشتات .

وطريق الإنسان هو هذا الكدح خارجاً من قبضة مادته إلى نورانية روحه .

﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦) ﴾ [الانشقاق]

وهو فى مكابدة دائمة من لحظة ميلاده يتأرجح بين قطبى

جسده وروحه فى قلق لا يهدأ وصراع لا يتوقف .. يصعد ثم يسقط ثم يعاود الصعود ثم يعاود السقوط .

وكل منا له معراج إلى الكمال .

وكل منا يصعد على قدر عزمه وإيمانه .

ولا صعود دون ربط الأحزمة على البطون وكبح الشهوات .

والكامل حقاً لا يرى فى الحرمان حرماناً ، فموضوعات اللذة المادية لم تعد بذات قيمة فى نظره ، فهو قد وصل بإدراكه العالى إلى تذوق المتع الروحية واللذات المجردة .. فأصبحت الماديات بعد ذلك شيئاً غليظاً لا يسيغه .. وهو ارتقاء أذواق وليس فقط ارتقاء همم وعزائم .

والصوفية يسمون هذا المعراج النفسى بالخروج .. الخروج من الصفات البشرية إلى الصفات الإلهية .

والله يطوى الصفات البشرية عن أحبابه كما يطوى لهم الأرض ويجذبهم إليه .. وهى الجذبة الصوفية .. وهى إذا جاءت لصاحبها على غير استعداد جعلت منه مجذوباً خارجاً عن صوابه ، وهى رتبة دون الكمال .. لأن الكمال هو الصلاح بوعى .. وليس الصلاح بفقد الوعى .

والأنبياء فى هذا الموضوع هم القدوة .

ولم نعرف نبياً واحداً كان مجذوباً أو هائماً على وجهه بلا عقل .

وهذه إحدى مزالق الطريق الصوفى .. أن يتعجل السالك

الطريق برياضات الخلوة الحادة ومجاهداتها المضنية ، فيفقد حيوانيته وعقله معاً .

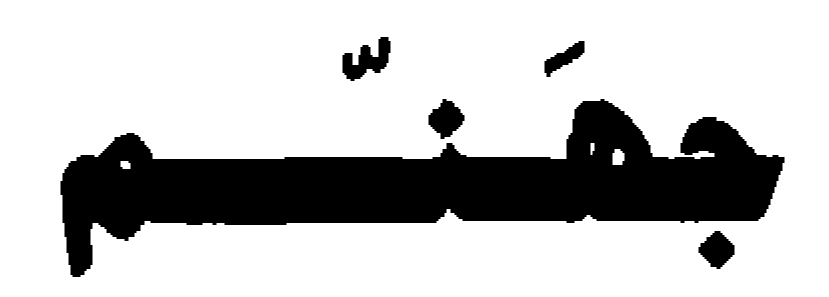
والقرآن كان هو المنهج الأمثل لهذه التزكية النفسية ، فاختار طريق الوسط .. طريق الاعتدال ، بين الإفراط والتفريط .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١) ﴾ [الأعراف] .. فنصح بضبط النفس على جادة الاعتدال .. لا رهبانية وصيام الدهر .. ولا إطلاق لعنان الشهوات .. وإنما ضبط السلوك على دستور الشريعة والوصايا .. وهو منهج يؤدى إلى العروج الروحى دون تعسف ودون جذب .

ولا يهتم المسلم السالك بأن تجرى على يديه الكرامات وخوارق العادات وإنما هو يقول : أعظم كرامة هى الاستقامة .

والاستقامة هى سمت الإنسان حقاً .

وهى تلك الحالة التى وصفناها فى بداية المقال بأنها انسجام الظاهر والباطن فى وحدة متناسقة متناغمة .. وأنها حالة الصلح بين الإنسان ونفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله .



لا نسمع كلمة « جهنم » هذه الأيام إلا فى نكتة ..

وقد تحولت جهنم فى ذهن الرجل العصرى إلى أسطورة يذكرها وهو يبتسم ، وكأنما يتذكر منظراً فى رواية لدراكولا .

وأصبح مألوفاً أن نجد بين المؤمنين مَنْ يتكلم عن جهنم فى شك ..

ونسمع مَنْ يتساءل قائلاً :

« كيف يعذبنا الإله الرحيم .. ومَنْ نحن حتى يعذبنا .. إنه لا شك يخوفنا ولكنه سوف يفاجئنا يوم الحساب بالعفو الشامل ويدخلنا برحمته جميعاً فى الجنة .. مستحيل على الإله الرحيم أن يعذب أحداً .. مستحيل .. » .

ويتصور المتكلم أنه بذلك يرد اعتبار الرحمة للرحيم وأنه يقدر الله حق قدره .. والحقيقة أنه يسىء إلى الخالق من حيث يتصور أنه يحسن ويلصق به الظلم من حيث يتصور أنه يصفه بالعدل .

تلك الصورة السانجة لإله يساوى بين المجرمين وبين ضحاياهم فى الجزاء ويقيم للقاتل والقتيل كليهما حفلة شاى ..

مَنْ يكون ذلك الإله إلا إلهاً ظالماً ..

وهل يستوى الأبيض والأسود إلا عند الأعمى ؟

إنه منتهى سوء الظن بالله أن نتصور أنه يضع كل الناس فى الجنة ويساوى بين السفاحين الجبارين وبين الألوف من قتلاهم الأبرياء الذين هلكوا فى السجون .. لمجرد أننا لا نتخيل إلهاً يعذب.

ولا أدرى من أين جاء المؤمن أو الكافر بأن الله لا يمكن أن يعذب ؟

وإذا اتخذنا دنيانا مثلاً .. واتفقنا بأن هذه الدنيا التى نعيشها من خلق الله .. فلا بد أن نوافق بالإجماع على أن الله يعذب .. فلا شىء فى هذه الدنيا أصدق من العذاب .

مَنْ الذى خلق الميكروب ؟

مَنْ الذى خلق السم فى الثعبان ؟

مَنْ الذى يفجر البركان ويغرق قرى بأكملها تحت الحمم الملتهبة ؟ مَنْ الذى خلق زمهرير القطبين ورفع الشمس عمودية تسلق جلود سكان خط الاستواء ؟

مَنْ الذى قضى علينا بآلام الشيخوخة وأوجاع الحمل ؟

مَنْ الذى يدفن المدن تحت الزلازل ؟

إنه ليس الشيطان .. ولكنه هو هو نفس الإله الرحيم الذى وضع العطر فى الزهرة والترياق فى العشب .. وهو هو نفسه

الذى خلق الربيع والصحة وأودع القوة فى العضلات والحب فى القلوب والبسمات على الشفاه .. وهو هو ذاته خالق الحنان والمودة والتعاطف .. وهو الذى أعطانا العقل والحيلة لنركب البحر والبر والجو ، ونتغلب على الحر والبرد ، ونقاوم المرض والموت .

وهو هو الذى وفّر لنا الغذاء والكساء وأسبغ علينا ثوب العافية والسعادة .

وقد وصف نفسه فى كتابه فقال إنه النافع الضار .. وأنه المحيي المميت .. وأنه الخافض الرافع والقابض الباسط .. وأنه المعز المذل .. وأنه الفعال لما يشاء الذى يعذب مَنْ يشاء .. لا راد لقضائه ولا معقب لأمره .. ولا يسأل عما يفعل .

وفى نفس هذه اللحظة التى أكتب فيها هذه الكلمات هناك عشرات من عربات الإسعاف فى كل مكان بالعالم تحمل على محفاتها محروقين يئنون ويتحشرجون ويصرخون ..

ولا شىء من هذا يحدث ضد المشيئة الإلهية .. وإنما كل شىء يحدث بعلم الله وتقديره .

وقد نفعل ما لا يُرضى الله ، فنسرف ونقتل وندمر ونحرق ولكننا لا نستطيع أن نفعل ما لا يشاء الله .. فجميع الأحداث والأفعال تحدث ضمن المشيئة الإلهية وإن خرج بعضها عن الرضا الإلهى .

وفى مشيئة الله وفى ألواح قدره أن هناك الشقى والسعيد ، وأن هناك مَنْ يقضى له بالنعيم ومَنْ يقضى عليه بالعذاب بل

بالحرق وفى هذه الدنيا عينها التى نعيشها .

ومصداق هذا الكلام واضح فى حياتنا وشواهده فى دفتر يوميات كل شخص .. وليس بحاجة إلى برهان .

وأكثر من هذا نعلم من خبراتنا المباشرة أن العذاب لا يتناقض مع الرحمة بل يكون أحياناً هو عين الرحمة .. فهناك نفوس لا تستفيق إلا بالعذاب .. بل تكاد تكون القاعدة أن القلب لا يصحو إلا بالألم والنفس لا تشف وترهف إلا بالمعاناة ، والعقل لا يتعلم إلا بالعبرة ، والقدم لا تأخذ درساً إلا إذا وقعت فى حفرة .. فجهنم الدنيا لا تتنافى مع العدل الإلهى إذا نظرنا للأمور كلها نظرة شاملة .. والحالات الفردية التى نعجز فيها عن رؤية الحكمة فى العذاب والتعذيب يكون سببها جهلنا وقصورنا عن الإحاطة وليس أبداً ظلم الله ..

جهنم إذن موجودة بكل درجاتها فى النموذج المصغر والعينة التى نعيشها والتى اسمها الدنيا .. هى موجودة من الحريق الفعلى الذى يسلق الجلد نزولاً إلى الألم النفسى والمعنوى .. وكلها من تدبير الله وفعله وخلقه .. وكلها رحمة .. وكلها لحكمة أحياناً تظهر لنا وأحياناً تخفى علينا .

هذه هى الحقيقة المشاهدة الملموسة .. فلماذا تستبعد العقول فكرة الإله الذى يعذب .. وفكرة جهنم .. مع أننا نعيش عينة مصغرة من جهنم كل يوم .

نقول هذا الكلام للذين فهموا الله فهماً سطحياً وتصوروا أن

العذاب والتعذيب محال عليه ، مناقض لرحمته ، وأنه سوف يسوى فى آخرته بين المجرمين والشرفاء ، فيدعو الكل إلى جروبى ويقدم لهم ما لذ وطاب باسم المحبة الخالصة التى وسعت كل شىء .

نقول لهم إن الله يعذب .

وإن عذاب الله دائماً هو عين رحمته .

وإن هناك ضمائر لا تتيقظ إلا بالعذاب .

وإن هناك عقولاً لا تعرف الله إلا حينما ترى عذابه ، وإن هناك نفوساً مظلمة لا تشهد الحق فى النعمة ، ولا سبيل إلى تعريفها بالحق إلا بالعنف .. مثل اللحم الميت الذى لا علاج له إلا بالكى .

ولمثل هؤلاء جهنم هى عين الرحمة لأنها الوسيلة الوحيدة الباقية للتعليم بعد أن أصر المنكر على إنكاره والمتعامى على عماه وبعد استنفاد كل السبل السلمية للإقناع وبعد أن فشلت الكتب والرسل وعبر التاريخ وآيات السماء فى التماس مدخل إلى القلب .

حينئذ تصبح جهنم هى الجراحة الوحيدة الممكنة لفتح العين وإشهاد الحواس ..

وهى بهذا المعنى لا تتنافى مع رحمة الرحيم بل هى عين رحمته .

الجنَّـــة

هى قادمة من لندن منذ أيام بعد سياحة قصيرة .. ذهبت وعلى وجهها براءة وفى خطوتها حياء .. وعـادت متنمرة متحفزة تتدلى من شفتيها سيجارة تنفث دخانها متواصلاً كمدخنة ، وقد وضعت ساقاً على ساق وراحت تحملق فى وجهى فى صرامة وحدة .

كنت فى عجب من التغير السريع .

أين ذهبت الأنوثة الفـياضة والملامح اللذيذة الـهشة مـثل غزل البنات التى كانت تتلون بحمرة الخجل لأقل خاطر ؟

أنا أمام شيخ غفر .

سألت فى توجس لعلى أكتشف السر :

– ترى كيف رأيت لندن !

جاء ردها كطلقات مدفع رشاش :

– رأيت الجنة .. إنهم هـناك يعـيـشـون فى الجنة .. حـرية .. حرية .. حرية .. حرية فى كل شىء .. البـنت هناك تفعل ما تشاء

كما تشاء تخرج وقتما تريد تعود وقتما تريد .. أو لا تعود إذا حلا لها ألا تعود .. تعانق فتاها أمام الجميع ، وتقبله أمام الجميع ، وتختلى به ويختلى بها ، وتفعل به ويفعل بها كل ما يلذ لهما دون خوف من أن تتلصص عيون الآخرين لتعرف ماذا يجرى تحت الملاءة .. العسكرى يحرس المنظر الجميل من الفضوليين ويحمى الخلوة بقوة القانون .. الأهل يباركون هذه الحرية الجنسية ولا يدسون أنفهم فيها .

لا أحد يسأل .. هل هو زوجك .. هل هو خطيبك .. متى نقول مبروك .. كل واحد فى حاله .. كل واحد له لذته وخلوته وصاحبته .. هذه هى الحياة .. هذا هو التقدم .. هذه هى الجنة .

كنت أستمع فى دهشة .. وأذكر زيارتى أنا الآخر للندن وكيف أعجبت بها .. ولكن لسبب آخر مختلف تماماً .. فقد أعجبنى فيها النظام والجدية والعمل والإنتاج وديمقراطية الرأى .. ولم ألق بالاً لظاهرة الهيبيز والتحلل الجنسى .. فقد رأيت فيها فى ذلك الوقت مظهراً لتداعى إمبراطورية عظيمة وعرضاً من أعراض تصدعها .. ولو أن شباب بريطانيا بدأ بهذه الصورة الرخوة المنحلة لما قام لبريطانيا بناء تحت الشمس ، ولما استطاعت أن تقتحم بأساطيلها البحار السبعة .. إنها قصة ميلاد وموت الإمبراطوريات كما تعلمناها من التاريخ .. تبدأ بالعصامية والفقر والتقشف والصبر والكفاح وتنتهى بالشيخوخة فى الترف والانحلال .. قصة لا يمل التاريخ من تكرارها على أسماعنا ..

وأفقت من ذكرياتى وتأمـلاتى على صوت صاحبـتنا يصفعنى من جديد :

– هيه .. مـتى تتقـدمون أيهـا الرجال .. وتخلعون عنـكم ثياب الرجـعـية والـتخلف وتـعاملـون المرأة كآدمـيـة لهـا الحق فى أن تستمتع .. متى نعيش أحراراً .

قلت وأنا ما زلت مندهشاً من هذا التحفز فى نبراتها :

– ولكنك على ما أعلم حرة .. أنت حرة .. فى إمكانك أن تفعلى مـا تشائـين .. ليس فى رفقـتك شـرطى وليس فى يدك أغـلال .. ولست رهن تحقـيق أو اعتقال .. وإذا قـررت بينك وبين نفسك أن تفوزى بمتـعة ، فأنت تحصلين عليها فى غـفلة من الجميع وبرغم أنفهم .

فصاحت بحدة :

– ولماذا لا أسـتمـتع علناً أمـام الكل ؟ لماذا لا تكون الأحضـان والقبلات مثل التموين المشـروع نتبادلها بلا خوف ؟ لماذا لا تكون الحرية الجنسية فى بطاقة تموينا مثل السكر والزيت والشاى حقاً مقرراً لا نقاش فيه ولا عيب ولا حرام ؟

لبثت لحظة أمـسك رأسى محملقـاً فى هذه التى عرفتهـا عذراء مثل فتافيت السكر .. كيف تتكلم الآن فى ضراوة مثل الغولة ؟

وأعجـب ما فى الأمـر .. أنها كـانت تتكلم فى زهو وخيـلاء .. وكأنما تحمل إلى العـالم بشارة جديدة أو نظرية عميقـة أو مذهباً فلسفياً !

قلت لها :

– ولكن هذا مذهب القرود .. وهو أمر قديم جداً لا تقدم فيه ولا تقدمية .. فالقرود تتناكح وتتلاقح وتتعانق فى الأقفاص ونحن نصفق لها ونبارك حريتها ونلقى إليها بالموز والسودانى .. هذه نظرية لا يحتاج اكتشافها إلى رحلة إلى لندن وإنما تكفى رحلة إلى جبلاية القرود .. لقد كلفت نفسك مشواراً طويلاً بدون مقتضى .

قالت فى غيظ :

– سوف تعود إلى كلامك الفارغ .

والحق أنى كنت فى حيرة من كل هذا الغيظ .. ومن كل هذا الغل الذى جرى به الحوار .. فليس بيننا ثأر قديم على ما أعلم وإن كنت أدعو إلى العفة .. فإنى لا أفعل هذا لحسابى الخاص .. وإنما هى حقيقة وخبرة وممارسة ومعاناة وخلاصة عمر .. أحاول أن أوصل ثمرتها إلى الآخرين .. وأطرح أمامهم رأياً حراً وليس فى المسألة تحد .

وجاءنى صوتها عنيداً مكابراً :

– على العموم إذا كنت أتفادى الصدام معكم إلى الآن .. وإذا كنت أخضع أحياناً لتقاليدكم البالية أيها الرجال .. فإنما أفعل هذا إشفاقاً عليكم لأنكم مساكين .. إشفاقاً على الأب والأخ والصديق « بتصعبوا عليه » .

أخيراً .. قالت كلمة حق .. فنحن مساكين فعلاً .. ومع مثل هذه

العقلية النســائية سنكون جيلاً مسكـيناً من الرجال .. « نصعب ع الكافر » .

وليست جنة أبداً تلك الخـلوة التى تجمعنا مع مـثل هذه العينة من النســـاء ولو كــانت فى هايدبارك فــى لندن تحت أشــجــار الزيزفون يفعل كل منا بالآخر ما يلذ له .

فهؤلاء لسن نساء .. وإنما غيلان ..

ونظرت إلي وجـهها المتنمر ورحت أبحث عن فـتافـيت السكر التى كـانت تمس شغـاف القلب . .. فوجـدت وجهـاً تبخـرت منه الأنثى وبقى شىء مـتصلب لا يـصلح لأن يكون وجهـاً لأنثى ولا وجهاً لرجل .. ولا حتى سحنة لشيخ غفر ..

السائل السحرى

ليس أحلى من طعم الماء فى فم العطشان .

إنه أحلى من العسل والخمر .

وأحلى من القبلة .

وأغلى من مليون جنيه .. بلى أغلى من كل ذهب الأرض بالنسبة لرجل يموت من الظمأ .

ولا شيء يعدل قطرة الماء فى تلك اللحظة .. إنها اللؤلؤ المذاب والماس السائل والياقوت الحر .. والجنة .

ويكاد العطشان يحس بطعم الماء يتسرب إلى كل خلية من خلاياه .. وكأن كل خلية تشرب على حدة وتنتعش وترقص وتترنح فى نشوة وتفيق من غيبوبة .

ولا نكاد نجد فى اللغة كلمة تعبر فى صدق وبلاغة عن طعم ذلك السائل الذى يقولون عنه كذباً إنه بلا طعم وبلا لون وبلا رائحة .

بل إن طعمه أعجب الطعم .

وإن طعمه لهو طعم الحياة ذاتها . وطعم البعث والقيام من الموت.ولهذا لا ندهش إذا قرأنا فى التاريخ أن الماء كان إلهاً يعبد فى الأديان القديمة .

أما العلم ، فيقول لنا إن الماء هو أعجب المركبات على الإطلاق فأكثر من ثلثى الجسم الحى بالوزن مؤلف من الماء . وثلاثة أرباع سطح الأرض مغطى بالماء .

وعندنا ٣٢٥ مليون ميل مكعب من الماء فى المحيطات وجليد القطبين .. وثلاثة آلاف ميل مكعب من الماء معلق فى السماء على شكل بخار ، و٢ مليون ميل مكعب من الماء فى جوف الأرض .

وبعض الكائنات تستطيع أن تعيش بلا هواء . ولكن لا يوجد كائن واحد حى يمكن أن يعيش بلا ماء .

والماء الذى تقول عنه الكيمياء إنه بلا لون وبلا طعم وبلا رائحة تعود فتصفه بأن له أعجب وأخطر الخواص فى دنيا المركبات .

● فجميع السوائل تنزل إلى تحت بالجاذبية إلا الماء ، فهو يصعد إلى فوق ضد الجاذبية « بالخاصة الشعرية » ، وبهذا هيأته طبيعته ليصعد فى جذوع الشجر والنخيل والنبات إلى أى مدى من النماء .. ولولا ذلك لما ارتفعت ساق خضراء فوق الأرض .

● وجميع السوائل تنكمش بالبرودة وتزداد فى الوزن إلا الماء ، فهو يتجمد بالبرودة ، ويخف فى الوزن .. ولذلك أمكن لصفائح

الجليد البارد أن تطفو وتغطى مياه القطبين وتحفظ المياه تحتها دافئة « بالعزل » صالحة لحياة الأسماك والحيتان ، ولولا ذلك لماتت الحياة البحرية فى الشتاء وتحولت البحار إلى جمد مهلك .

● والماء بحسب تركيبه الذرى كان لابد له أن يتجمد فى درجة مائة تحت الصفر ويسيل فى درجة تسعين تحت الصفر ، هكذا تقول لنا علومنا الذرية . وكان معنى هذا ألا يتواجد فى ظروف الأرض إلا على هيئة بخار .. ولكن الذى حدث أنه يتجمد فى الصفر ويغلى فى مائة ، وبهذا أمكن له أن يتواجد فى المكان الواحد فى الأرض على هيئاته الثلاث : بخار ، وسائل ، وصلب ، وهو أمر آخر حيوى كان لابد من توافره لتقوم على الأرض حياة.

● والماء هو السائل الوحيد الذى يملك قدرات خرافية على إذابة الأشياء والتفاعل معها .. فهو يأكل الحديد .. والصخر .. ونصف المركبات المعروفة وجدت ذائبة فى الماء .

● والجزىء المائى كما يشرحه لنا علم الطبيعة الجزيئية هو الآخر جزىء خارق مدهش .. فالأكسجين ملتحم بالأيدروجين على طريقة العاشق والمعشوق ، والذرتان داخل بعضهما فى بعض .. والإلكترون الوحيد فى ذرة الأيدروجين داخل فى ذرة الأكسجين ، وله وظيفة فى مدارها .. مما أدى إلى استقطاب الجزىء استقطاباً كهربائياً ، فأحد طرفى الجزىء موجب « وهو الطرف الأيدروجينى » والطرف الآخر سالب « وهو الطرف الأكسجينى » .

وهذه الصفة العجيبة جعلت من الجزىء شيئاً أشبه بمغناطيس وجعلت الجزيئات تتماسك بشدة وتتجاذب كما تتجاذب عدة من المغناطيسات ، مما أدى إلى ظاهرة التماسك السطحى التى نسميها ظاهرة التوتر السطحى للماء Surface tention فيمكنك أن تضع شفرة حلاقة من الصلب برفق فوق سطح الماء ، فتطفو بسبب هذا التماسك السطحى الذى لا يسمح لشىء باختراقه . وتكهرب الجزيئات المائية هو الذى يفسر الخاصة الشعرية Capillarity وهى الخاصة التى يتسلق بها الماء إلى أعلى ضد الجاذبية ، والواقع أنه يتسلق بالجذب المغناطيسى بين ذراته وبين جدران الأوعية الشعرية . وبالتالى يجذب السطح المائى كله معه « لأن السطح كله متماسك » .

وهذه الصفات الكهربائية للجزىء هى السر فى قدرة الماء الخرافية على الإذابة .. لأن الطرف الموجب للجزىء يشد إليه الشق السالب من أى مادة ، والطرف السالب يشد إليه الشق الموجب فتنحل المادة إلى شقيها السالب والموجب ، وهو ما نسميه بالأيونات السالبة والموجبة وتتأين المادة أو تذوب بلغتنا الدارجة .

● وربما كان أعجب ما فى الماء قدرته على خزن وتصريف الحرارة . وكلنا نعلم من خبراتنا العادية أن قضيباً ساخناً من الحديد يمكن أن يبرد فى ثوان على حين يظل الماء ساخناً فى

البانيو ساعات قبل أن يعود إلى برودته .

وهى صفة تصبح حيوية جداً حينما نعلم علاقة تبادل الطاقة بين مياه المحيطات والشمس .

فالمحيطات هى الغلاية اليومية التى تسخنها الشمس فتتبخر مياه المحيطات بالحرارة وتصعد إلى السماء .. ثم إلى أعلى .. إلى أجواء السماء الباردة فتتكثف سحباً .. ثم تهطل أمطاراً ، ثم تسيل أنهاراً لتصب فى المحيطات من جديد .

دورة مائية يومية .

وتبلغ الطاقة الشمسية الحرارية المستخدمة فى هذه الدورة فى اليوم الواحد أكثر من كل ما أنتج الإنسان من طاقة خلال تاريخه كله .

والذى يقتنص هذه الطاقة ويحفظها ويصرفها ويوظفها هو جزىء الماء العجيب .

والماء يتبخر من المحيطات ثم يعود إلى المحيطات من جديد فى كم كلى ثابت لا ينقص ولا يزيد .. وهذه معجزة أخرى .. فمنذ ثلاثة آلاف مليون سنة منذ بدء الماء على الأرض وكميته ثابتة لا تزيد ولا تنقص .. وربما كان الماء الذى تصنع منه اليوم كوباً من الليمونادة هو نفس الماء الذى استحمت به كليوباترة ، وهو ذاته الذى تمضمض به خوفو من آلاف السنين .

● والماء الذى اقتنص الطاقة من الشمس يعود فيصبح مصد

للطاقة وتنظيم الطقس .. ثم يعود فيصبح مصدراً للطاقة من باب آخر هو مساقط الماء والشلالات والقناطر والسدود .

● والماء هو النحات اليومى الذى يقوم بتشكيل القارات والشواطىء والسواحل ، ويقوم بحفر مجارى الأنهار وقيعان البحيرات ، وهو الرافعة السحرية التى تنقل الجبال وتمهد الوديان .

هذا ما يقوله علم الطبيعة والكيميا والجيولوجيا عن الماء .. وما تراه العين المجردة من شأن الماء .

أما فى مجال البحث المجهرى وما يراه الميكروسكوب فى نقطة الماء ، فهو الأمر المدهش والمثير .

فنقطة ماء من مستنقع تحتشد فيها عدة آلاف من أصناف الأحياء وعدة ملايين من الكائنات الدقيقة من فيروسات وبكتريا وفطر وطحلب .. شعوب وممالك وأمم من الكائنات يأكل بعضها بعضاً وتتعايش وتتعامل وتتنافس وتتسابق .. وكل ذلك فى نقطة ماء من مستنقع على كوكب هو ذاته أصغر من هباءة فى الكون الواسع .

ليس عجيباً بعد كل هذا أن نرى الماء مذكوراً فى القرآن فى ٦٤ موقعاً على أنه نعمة كبرى يمن بها الخالق على عباده .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ﴾ [الفرقان]

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ .. (٩) ﴾ [ق]

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑩ ﴾ [لقمان]

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ .. ⑱ ﴾ [المؤمنون]

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ㉚ ﴾ [الأنبياء]

﴿ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ .. ㊺ ﴾ [النور]

﴿ خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا .. ㊹ ﴾ [الفرقان]

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) ﴾ [الواقعة]

وفى أجمل الآيات يقول الله فى مبدأ الخلق : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. ⑦ ﴾ [هود]

وإذا اعتبرنا الآية تعبيراً بالمجاز عن عظمة الماء وخطره ، فالمعنى واضح فقد رأينا أن الحياة كلها عبارة عن محلول مائى وأن الماء هو وسيط الفعل الإلهى فى المخلوقات جميعها ، فعرش الله وسلطانه وقبضته تتم كلها من خلال الماء .

أما إذا وقفنا عند الحروف واعتبرنا المعنى لغزاً مما لا يعلمه إلا الله .. فإنه منتهى التشريف أن يجئ ذكر الماء مقترناً بالعرش الإلهى .

وهو تشريف قد رأينا أسبابه .

ألم نجد فى نقطة الماء الواحدة أمماً وشعوباً وقبائل وملايين الخلائق مما لا ترى العين .

ألم نجد فى جزىء الماء البسيط معجزة تركع أمامها علوم الكيميا والطبيعة والجيولوجيا وتحار فيها عقول العارفين .

هذا الجزىء الذى يخزن الطاقة ويفجر الحياة ويذيب الصخر وينحت القارات وينظم الطقس . هذا اللؤلؤ المذاب والماس السائل الذى يجرى على حلق العطشان أحلى من القُبل وأعذب من صرافة الخمر .

حقاً .. ما أحفل هذه الكلمات القليلة بالأسرار حينما ترتلها القلوب وتتأمل العقول .

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧)﴾ [هود]

عالم الأسرار

ما أعجب تلك النفس التى فى داخلنا .

فيـها من النار « الشـهوة والجوع والغـضب والحقد والحسد والغل » .

وفيها من النور « العفـو والتسامح والحلم والفهم والحنين إلى النور الأعظم الذى جاءت منه » .

فيـها من الطين « الآلية والتـكرار والجمود والرتابة والقـصور الذاتى والخمول والكسل والعجز عن التغيير والتثاقل والتهابط » .

وفيهـا من الروحانية « الانطلاق والحرية والشفـافية والابتكار والخلق والإبداع والخيال والجمال » .

وهى لا تولد نارية ولا نـورية ولا طينيـة ولا روحـيـة .. وإنما تولد مـجرد إمكانيـة قابلـة للصعـود أو الهبـوط إلى أى من هذه المراتب .

وإذا تأمل الواحد منا نفسه فى موضوعية شديدة ونظر إلى باطنه فى حياد مطلق ، فإنه يلاحظ أنه في حالة تذبذب دائم بين هذه المراتب صاعداً وهابطاً من لحظة لأخرى ومن يوم لآخر ، من حالة وجدانية إلى حالة عقلية إلى حالة شهوانية إلى صفاء روحانى .

والصوفيون يسمون هذه المراتب بالمقامات ..

وقليل جداً هم الذين يستطيعون الاستقرار والدوام فى المقامات الروحية دون أن تشدهم جذبات الشهوة والجوع وأحقاد الحياة المادية وأطماعها .

وكثير جداً هم الذين يستقرون فى المراتب السفلية حيث الحياة شهوة ومضاجعة وأكل وشرب وحيث لا هموم إلاّ هموم البطن والفرج .

ويبقى بعد ذلك أوساط الناس ممَنْ يتأرجحون بين النار والنور بين جذبات العلو وجذبات التسافل ينتشلون أنفسهم من إغراء ليقعوا فى آخر .

ولأن الشيطان مخلوق من النار ، فلا مدخل له على الإنسان إلا إذا تهابط إلى المرتبة النارية من نفسه « وهى مرتبة الشهوة والجوع والغضب والحقد والحسد والغل » حينئذ يمكن أن يتم التواصل بين الاثنين بحكم المجانسة .. فيستطيع الشيطان أن

يوصل إلى الإنسان وسوساته وأن يؤجج شهواته ويشعل غضباته .. ولكنه يظل معزولاً عمَنْ هم فى المراتب الروحية العالية بحكم عدم التجانس ، فهو لا يستطيع أن يوصل إليهم وسوسته .

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى فى القرآن للشيطان :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢) ﴾ [الحجر]

لأنهم ارتفعوا إلى منطقة يستحيل فيها التواصل وخرجوا من نارهم الكثيفة إلى أرواحهم اللطيفة .. حيث لا يسمع إلا رفيف الملائكة وإلهامات الأرواح العالية .. وحيث يصبح نفث الشيطان أكثف من أن يصل إليهم .

ولغز النفس الإنسانية هو فى قابليتها لتمثل هذه الأدوار وقبول هذه المراتب المتفاوتة علواً وسفلاً .

يقول الله تعالى عن هذه النفس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾

[الشمس]

ويقول فى كتابه الكريم عن قصة خلق آدم :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة]

ويفسر الصوفيون ذلك بأن الله جعل نفس آدم قابلة لتجليات الأسماء الإلهية .. فالإنسان يمكن أن يكون « الجبار » ويمكن أن يكون « الرحيم » ويمكن أن يكون « المنتقم » ويمكن أن يكون

« العفـو » وهذه كلها أسمـاء إلهية .. ولكنه أيضـاً يمكن أن يخرج عن هذه الأسمـاء الإلهية ويهـبط إلى درك الأوصاف الشـيطانية ، فيكون اللعـين والرجيم والمطرود والمحجـوب ويمكن أن يهبط إلى درك الأوصاف الحـيوانـية ويمكن أن يهـبط إلى غلظة الجمـادات وإلى برودة الصخر الأصم .

وهكذا خلق الله لآدم نفـسـاً قابلة لـلتصـور فى جـميع صـور الكائنات .. من أعلاها إلى أسفلها .

ويقـول الصوفـيون فى هذا : إن الإنسـان هو الكتاب الجـامع والكون هو مجرد صفحـات من هذا الكتاب .. أو سطور منه .. فما الأرض والسماوات إلا صفحـات من كتاب جامع هو الإنسان الذى يستطيع أن يجمعها جميعاً .

ولهـذا أمر الله الملائكة بالـسجـود لهذه النفس الـعجـيبـة التى سواها ونفخ فيها من روحـه ، لتكون قابلة لأن تسع الكون بجميع صوره ومـراتبه ودرجاته .. وأخـذ على نفسـه العهد بتـربية هذه النفس وهدايتهـا وجذبها إليـه وتأديبها باللين والمكافـأة وبالشدة والتـعـذيب .. بالرسل وبالكتب وبـالمصلحـين والهـداة .. وبالنذر والكوارث والآلام الهائلة .. إن لم تنفع الهداية .

وقال فى كتابه :

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦)﴾ [الانشقاق]

كلنا كادحون إلى الله زحفاً .

كلنا ساعون إليه طوعاً أو كرهاً .. بالنار وبالألم والدروس القاسية والتنكيل .. أو طوعاً واختياراً وحباً وكرامة .. ولن يستطيع أحد أن يخرج عن الصف .. ولا أن يخرج عن الاتجاه ، فلا يوجد إلا اتجاه واحد .. وهو السير إلى الله ..

﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾ [النور]

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

﴿ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾ [الشورى]

﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

والعبيد هم الذين يسيرون إليه بالضرب والنكال والعصا ، والعباد الأخيار هم الذين يسعون إليه حباً وشوقاً واختياراً ، ولا يوجد إنسان ملحد بحق .. آبق عن الطريق .. فالكل على الطريق .. والملحد هو مجرد رجل منكر جاحد معاند لا يدرى ماذا يُفعل به ، ولكنه فى الحقيقة سائر على نفس الدرب بالعصا والكرباج شأنه شأن أمثاله من العبيد حقراء الشأن ، ممن اختاروا ألا يكون لهم اختيار .. وتصوّروا أنهم اختاروا الحرية .. والحقيقة أنهم اختاروا أن يصكوا على أدمغتهم وقد طبع على قلوبهم وغشى على أبصارهم ، فصاروا كبهائم السواقى .. تتصور أنها تمرح فى الشمس والحقيقة أنها مغلولة إلى السواقى ، تعمل راغمة فى

مقابل حزمة البرسيم .

وفى هذا الجذب الإلهى للجميع منتهى الرحمة واللطف والحب والمودة .. فهو سبحانه حريص على إخراج الكل من الظلمات إلى النور ثم إلى الحضرة الإلهية عنده .. الكل واصل فى النهاية بفضل الله ورحمته التى وسعت كل شيء ..

ولكن البعض منا سيطول طريقه .. ماراً بنار الدنيا ونار الآخرة وهؤلاء هم المجرمون والمعاندون .. والبعض سيصلون إلى الحضرة الإلهية وهم فى حياتهم الدنيوية كما فعل محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الإسراء والمعراج حينما أصعده الله من فوق سبع سموات .. لأنه أهل للتشريف والتعظيم .. والشريف العظيم لا يجوز له أن ينتظر طويلاً بالباب قبل أن يأذن له الملك وإنما يجب أن تُفتح له الأبواب ويتلقى بالأحضان .

هى رحلة الأبد والأزل من بداية خلق الأرواح فى الملكوت إلى التنزل فى الأرحام إلى الحياة الدنيا إلى الموت إلى عالم البرزخ إلى قيام الساعة إلى الآخرة إلى ما بعد الآخرة مما استأثر الله بعلمه .

وهى أسرار يستمع إليها البعض فى رهبة ، ويبتسم لها البعض فى غفلة ، ويهزأ بها البعض فى جهالة .. ويقول هل هناك حقاً شياطين ، ويؤمن بذرة لا يراها وإلكترونات لا يعرف عنها إلا آثارها .. وآثار الشياطين فى حياته أكثر وضوحاً من آثار

الإلكترونات .. وهى حقائق عند أهل الحقائق ممَنْ لهم حظ فى معرفة هذه الأشياء ذوقاً وشهوداً ، وممَنْ كشف عنهم الغطاء فرأوا ما لا يُرى وسمعوا ما لا يُسمع .

والعاقل العليم مَنْ دعا الله أن يهديه إليه شوقاً واختياراً لا قهراً وإجباراً ، فيكون مثل السادة الأشراف لا مثل العبيد حقراء الشأن الذين يصكون على أدمغتهم ، وقد طبع على قلوبهم وغشى على أبصارهم ، فتصوروا أنفسهم من أهل الشطارة وهم من أهل الخسارة .. وتصوروا أنهم اختاروا ، والحق أن شيطانهم هو الذى اختار لهم سوء الدار وسوء القرار .

الأصنـــام

نحن نقـول إننا فى عـصر العلم وإننا خلـفنا الجاهليـة وراءنا بأصنامها وأوثانها .. ولم يعـد هناك مَنْ يعبد اللات والعزى وهبل ولا مَنْ يسجد لبعل .. انتهى الشرك إلى غير رجعة .

ولكنى أقول بل نحن عبدة أوثان نسجد ونركع ونحرق البخور ونرتل التسابيح والابتهالات فى كل لحظة لأصنام لا حصر لها .

نحن فى الجاهـلية بعينهـا ولو تكلمنا بلغة الإلـكترونات .. ولو مشينا على تراب القمر .

إنما اختلفت أسـماء الأصنام .. واختلفت صورها ونوعـياتها .. وتسترت تحت ثياب الألفة .. ولكنها هى الأصنام بعينها .

لماذا يكون جسد المرأة العارى اليوم .. وهل هو إلا صنم رفعناه إلى مرتبة الإله المعبود المعشوق المرتجى .

لقد أصبحت صورة الجسم العارى ماركة مسجلة نروج بها أى بضاعة .

صورة المرأة العارية هى تعويذة التاجر التى يرسمها على إعلانات السجائر ، وإعلانات الخمور والصابون والبيرة والكاميرات والساعات والحراير والأقمشة حتى أدوية الزكام وشفرات الحلاقة ومعاجين الأسنان .

وهى عامل مشترك فى كل أفيشات السينما والمسرح . وهى على أغلفة المجلات وعلى كروت المعايدة وفى جميع الفاترينات بمناسبة وبدون مناسبة .

وهى على علب الشيكولاتة وعلب البونبون وزجاجات العطر ، ونجدها بدون سبب فى إعلان لتروس الماكينات .

ونفاجأ بها فى إعلان سيارات تفتح لنا الباب وفى طائرات (س م ع) تقدم لنا طبقاً من الجاتوه مع ابتسامة . وإلى جانب مطحنة بن تقدم لنا فنجاناً من القهوة .. بل فى إعلان عن أسياخ الحديد الصلب تدعونا لنبنى بيتنا الجديد .. وهى دائماً عارية أو نصف عارية أو بالمايوه وعدسة الكاميرا مركزة على النهر بين الثديين .

وكأنما لا وسيلة لجذب الانتباه إلا باستخدام هذا المعبود الجديد .. ولا طريقة لشد العين إلا بالتلويح بهذا الوثن .

إنه الذكر والابتهال والتسبيح العصرى ، تسفح فيه الدموع وتنشد الأشعار وترتل المزامير والأغانى والرباعيات والسباعيات ، وتؤلف المسلسلات والحلقات كل حلقة تشحذ الذهن وتثير شهية المستمع والمتفرج لرؤية اللحظة الفاصلة .. لحظة تخلع البطلة

عذارها وتلقى ثيابها وتكشف عن المعبود المنشود .

أما الصنم الثانى أو لعله المعبد أو الكاتدرائية العظمى أو الكعبة أو جبل الأولمب الذى يتجمع فيه حشد الآلهة العصرية ، فهو فاترينة البضائع الاستهلاكية التى تتحلق حولها العيون مشدوهة مبهورة مسبحة ، تكاد تركع للثلاجة والريكوردر والتليفزيون والساعة الذهبية والسوار الماسى . والابن يقتل أباه والأخ يسرق أخاه ، والموظف يختلس والصانع يغش والصراف يزور ، والمزيف يزيف فى سبيل هذه الفاترينة الوهاجة .. فاترينة الأحلام .. الكل يتهجدون ويسهرون الليل يصلون لها .. وكل شىء يفنى ما عدا وجهها ذى الجلال والإكرام المضاء دائماً بالنيون والفلورسنت فى حى المال والتجارة من كل مدينة .

أما الصنم الثالث ، فهو الهيكل .. هيكل الفكرة المجردة والنظرية والمذهب السياسى الذى يركع فيه المريد المتعصب . لا يرى حقاً إلا ما تقوله بنود نظريته ، ولا يرى صدقاً إلا ما يأمر به مذهبه ، فإذا سمع مَنْ يتكلم عن مذهب آخر ، فهو خائن ، مارق ، فاسق ، يستحق أن يحرق حياً .. وهو يعيش بفكر مقلوب ومنطق معكوس ، فالإنسان عنده يجب أن يوضع فى خدمة النظرية لا النظرية فى خدمة الإنسان .

وهذا هو عابد الصنم الأجوف المجرد وعابد قصاصات الورق والشعارات الطنانة الكاذبة .. وهو أحد مجانين هذا الزمان .

وصنم آخر شائع هو الدكتاتور والحاكم المطلق والطاغية

المستبد الجالس على عرش السلطة ، ومن حوله بلاط الهتافين والمصفقين وحملة المباخر والمجامر والمسبحين بالحمد ، والمنافقين والكذابين وقارعى الطبول ونافخى الأبواق . تزفه الأناشيد والأهازيج فى كل مكان .. ويلقن الأطفال فى مدارسهم .. إنه الرزاق سبحانه والمنقذ والمعين الذى يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف ويكسوهم من عرى ، وإن عليهم أن يتوجهوا إليه بالتسبيح والتحميد كل صباح .. وإن عليهم أن يحفظوا كلماته ويعوا وصاياه ويلتمسوا رضاه .

وربما كان أشيع أصنام هذا العصر وأكثرها انتشاراً هو صنم « الذات » .. عبادة النفس .. واتباع الهوى .

المرأة التى تعبد جمالها .. والرجل الذى يعبد أناقته .. والممثل الذى يفتتن بشهرته .. والفنان العابد لفنه .. والبطل المبهور ببطولته .. والمتحدث اللبق الذكى المعجب بنفسه وبذكائه . ونجم السهرة المزهو بشخصيته .. وصاحب الملايين الفرحان بملايينه .

والمال فى أكثر الأحوال وفى هذا العصر المادى صنم فى ذاته تُقدم له القرابين من دم الجميع .

وقد يختفى صنم « الذات » وراء صنم أكبر هو « العصبية » للعائلة أو القبيلة أو الطائفة أو العرق أو العنصر أو الملة وكلها أصنام .. وكلها عبوديات .. وكلها شرك .

وعابد الله لا يكون عبداً لله إلا إذا تحرر منها جميعا وأسلم قلبه ووجهه خالصاً من جميع الشواغل والعلائق والتبعيات والمنازعات.

القلب لله « بلا منازع » .. هذا هو الدين .

أما ما نحن فيه ، فهو جاهلية .. جاهلية العلم التى جاءت بأصنامها الجديدة ، ونصبت أوثانها العصرية ، وأقامتها مكان اللات والعزى وهبل وبعل ، وأقامت لها الهياكل ووظفت لها السدنة والكهان وقدرت لها النذور والقرابين .

ولو أننا جلسنا إلى أنفسنا وصارحنا أنفسنا فى لحظة صدق لوجد أكثرنا نفسه فى إحدى خانات عباد الأصنام يسبح دون أن يدرى لوثن من تلك الأوثان الخفية التى أقامها عصر المادة فى قلوب الناس .

الحب والعداوة

الصحبة السعيدة فن ..

والمعاشـرة الحلوة موهبة واقـتدار ليس لكل واحد حظ فـيه .. ويخطىء مَنْ يظن أنه يمكـن أن يحقق السـعادة بقـراءة كتـاب أو تطبيق منهج ، فالسعادة لا توجـد فى كتب وإنما هى منحة الطبائع النقية والفطر السليمة والبصائر النيرة ، وهى ثمرة أخلاق وليست ثمرة علم .

وأكثر ما نقـرؤه فى الكتب عن الحب الأمثل والزواج النموذجى والصداقة النـاجحة محض أكاذيب .. وبعض هـذه الأكاذيب شائع جـداً وهو من كـثـرة مـا تردد على الألسن أصـبـح فى مـرتبـة الحقائق .

من هذه الأكاذيب الشائعة أكذوبة اسمها « الاندماج » ..

إن اندماج الاثنين فى واحد هو أكبر الشواهد على عمق الحب وحسن الصحبة وسلامة المعاشرة .

وهى كذبة عظيمة وثمرة تطبيقها نكبة مؤكدة وكارثة ليست فى الحسبان .

أولاً لأن الاندماج مستحيل ولا يمكن لاثنين أن يصبحا واحداً إلا بمجموعة من الإجراءات التعسفية نهايتها المحتومة هى التعاسة .

ورجفة القبلة واستسلام العناق وإغماءة الفراش التى نتخذها دليلاً على حلاوة الاندماج . ليست فى حقيقتها إلا حالة فسيولوجية عابرة ، طولها فى عمر الزمن ثوان يسترد بعدها كل واحد كينونته وفرديته واستقلاله .. وأى محاولة للدمج بعد الصحو من تلك اللحظات تكون فى حقيقتها عدواناً من كل من الطرفين على استقلال الآخر وفرديته ، مثل ما يحدث من التجسس على الخطابات والتنصت على التليفونات وتفتيش الجيوب وشق الدماغ لمعرفة ما فيها بحجة أنه لا يجوز أن يكون الاثنان اثنين وإنما يجب أن يكونا واحداً لا أسرار ولا خفايا ولا خصوصيات .. « واللى فى جيبى فى جيبك .. واللى فى بطنى فى بطنك » .

وينسى الذين يروجون هذا الكلام أن انتهاك الخصوصية

والشخصانية والفردانية هو أسوأ أنواع العدوان وهو أشبه باقتحام المجال الجوى أو التسلل إلى أرض مقدسة أو انتهاك الحرمة .

وقداسة الشخصية الإنسانية هى فى استسرارها واستغلاقها ، فإذا افتضحت انتهت وسقطت هيبتها واستنفدت بذلك العلاقة الإنسانية أغراضها .. وما يلبث بعدها أن يتحول الاثنان إلى ألد الأعداء .

لابد من احترام المسافة التى تحفظ لكل فرد مجاله الخاص وكينونته الخاصة كإنسان مستقل له الحق فى أن يطوى ضلوعه على شىء .

وأمهاتنا كانوا ينادون أزواجهن بإضافة ألقاب ونعوت ، فكانوا يقولون يا سى محمود أو يا سى حلمى ، وكان الزوج يقول لزوجته يا أم إبراهيم يا أم حسن .. وكانت تلك الألقاب تحفظ المسافة وتحفظ للعلاقة احترامها .. ولم يكن رفع الكلفة فى الفراش يعنى رفعها إطلاقاً فى كل ساعة .. وهو سلوك فطرى سليم ، لأن رفع الكلفة إطلاقاً فى علاقات اليوم أصبح يتداعى إلى التخاطب البذىء وإلى التفاحش فى الألفاظ بحجة رفع الكلفة والصراحة .. وهذا بدوره يؤدى إلى حالة من افتقاد البراءة والامتهان المتبادل والسوقية والابتذال ، ثم تنتهى الحياة المشتركة

إلى حالة من العرى والسخف الذى لا يطاق .

وحفظ المسافة فى العلاقات الإنسانية مثل حفظ المسافة بين العربات أثناء السير ، فهى الوقاية الضرورية من المصادمات المهلكة.

وما يتصوره البعض اندماجاً يولد فيه الحبيبان هو فى واقع الأمر تصادم مهلك يهلك فيه الاثنان ، فلا يمكن أن يصبح الاثنان واحداً إلا بعمليات بتر وتمزيق وزرع أعضاء .. وتكون النتيجة أن يرفض كل جسم العضو المزروع كما يحدث فى حكايات زرع القلوب ويموت الاثنان .

والله خلق كلا منا فرداً مفرداً فريداً منفرداً ونسيجاً وحده .. وكل منا يولد وحده ويمرض وحده ويتألم وحده ويشيخ وحده ويموت وحده ويلقى الله وحده ويحاسب وحده .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) ﴾ [المدثر]

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ [مريم]

الفردية هى حقيقتنا .

والتعاطف والمشاركة الوجدانية والمواساة شىء غير الاقتحام والغزو والإدماج .

التعاطف هو الحياة معاً .

والاندماج هو أن يقوم أحد الطرفين فى أنانية بالتهام الآخر وهضمه واستيعابه والاستيلاء على مخصصاته وخصوصياته .

والحالة الأولى إنسانية والثانية جريمة واستغلال ونفوذ وأعجب ما يحدث أن نجد امرأة تحكم رجلها وتحاول أن تستولى على ماضيه قبل أن يلتقى بها ويعرفها وكأنها تملكه من يوم ميلاده وكأنما يمتد عقد الملكية بأثر رجعى .

وهى تسمى ما تفعله حباً .. والحقيقة أنه منتهى العدوان وسوء الخلق .. تماماً مثل الغيرة التى تسوقها على رجلها بدعوى الحب وهى فى حقيقتها ذريعة للتسلط والحجر والتملك والحصار .

والإنسان السوى فى حاجة دائماً إلى لحظات انفراد مع نفسه وخلوة مع فكره .. وهى لحظات عزيزة لديه لا يحب أن يقتحمها عليه أحد .. ولذا كان الفراش المنفصل وغرفة النوم المنفصلة بالنسبة للأزواج أحياناً ضرورة .

ومن الأخطاء الشائعة التى نغنيها ونرددها .. أن « الشك يحيى الغرام ويزيد فى نار الأحبة » .

هكذا تقول الأغنية التى يغنيها عبد الوهاب .

وهكذا يتصور الأولاد والبنات .

وهكذا يعاملون بعضهم بعضاً .

ولكن خريطة الواقع واستقراء الشواهد فى كل بيت تقول إن هذا الحب .. « حب الغيرة والشك والأثرة » .. ينتهى دائماً إلى فشل .. ثم يتحول إلى جحيم العداوة وليس إلى نار الأحبة .. والسر فى ذلك أنه بدأ عداوة ولم يبدأ حباً .. وأنه كان العداوة بعينها من أول لحظة .. لأن الذى يحب إنساناً لا ينتهكه ولا يلغ فى أحشائه ولا يفكر فى أن يكسر دماغه ليعرف ما فيها ولا ينظر إليه باعتباره أرض وقف .. وإنما ينظر إليه كإنسان حر له خصوصيته واستقلاله وكينونته .. وهو لا يحاول أن يغزو أرضه أو ينتهك مجاله وإنما يحاول أن يضيف إلى أرضه أرضاً جديدة وإلى مجاله الحيوى اتساعاً جديداً .

ولكنا نعود ، فنقول إن هذه المسائل مردها فى النهاية إلى الأخلاق وليس الثقافة .. إلى الطبع وليس المدرسة .. فالطبع السمح الكريم هو الذى يشع السعادة والحب من حوله لأنه طبع معطاء وهاب بطبيعته ، أما الطبع الشرير الأنانى ، فهو طبع مناع مستغل لص لا يفكر منذ البداية إلا كيف يأخذ وكيف ينهب وكيف يسطو ؟

وخلاصة القول إن المرأة السيئة حبها هو السوء بعينه ولو تصورت أنه الغرام الذى ليس بعده غرام ولو انتحرت دونه ولطمت الخدود وقبلت التراب .

ثم هناك المرأة الأخـــرى التي تريد الرجل وترفض مـــشـــاكله وتطلبه لنفـسها معـقماً مسـتخلصاً مـستقطراً من مصـادره مثل العطور لا أثر فيه لأى شائبة من ظروفه .. مع أن الرباط الإنسانى فى معناه الحـقيقى هو التـبنى ، والدليل الوحيد على عـلاقة المرأة برجلها هو تبنيهـا لمشاكله .. أما أن تحاول تقشيـره لتلقى بالقشر وتأكل اللبـاب ، فـهـو لون آخـر من الأنانيـة ومن الشـخـصـيـة الاستمتاعية الاستهلاكية التى تريد أن تأخذ ولا تعطى .

والعـلاقة الإنـسانيـة لا يمكن اخـتـزالها إلـى نزهة على النيل وهمسـات نجوى ، وإنما هى تتضـمن حمل تبعـة وتبنى مشكلة ، وكل تعارف بين اثنين يتـضمن قبول مـخاطر ، وعلى مَنْ يرفض المخاطر أن يغلق عليه بابه ولا يدعى صداقـة بأحد ، فالصداقة هى الأخرى تبعة .. وكلمة الحب وكلمة الصداقة دعوى .

والله لا يتركنـا ندعى أى شىء إلا ويمتحـننا فيه ، بأن يـضعنا أمام مخاطر الكلمة ومخاطر التبعة .. فيطالبنا بثمن الصدق إن كنا صادقـين .. والله يمتـحننا فى ظاهرنا وباطننا ويمـتحن جـواهرنا وقلوبنا وأفعالنا .

وربما كانت أشيع خطايانا هى الجزافية فى التـعبير .. الجزافية فى التعبير عن الحب .. والمبالغـة فى كلمات الإعجاب .. والإسهال فى لغة الصداقة .. والغلظة فى الخـصومة .. والحدة فى الإدانة ..

والترخص فى الاتهـام .. والتجاوز فى الـتجريح .. وكلهـا كلمات نطلقها بـلا تحسب ، فتتحـول بعد خروجها إلى طـاقة مجنونة لا سلطان لنا عليها .. فتـدمى قلوباً وتفصم روابط وتزلزل نفوساً .. وينكر الأخ أخـاه والحبـيب حبيـبه .. ولا يعـود كل منا هو هو .. وننظر إلى بعضنا البعض كأننا غرباء افتقدوا الألفة .

وإذا بصديق الأمس « الإنسان النادر » قد أصـبح خصيم اليوم « الإنسان الرخيص » المهلهل السيـرة .. لمجرد تباديل وتوافيق فى لعبة الكلمات وتباديل وتوافـيق فى الأشـخاص .. وبلا حجة سوى حجة القلوب التى تتقلب مع هوى اللحظات .

ويهمس الواحد فى نفسه .. لا أصدق أنها هى هى التى تتكلم .. مستحيل .. هذه امرأة لا أعرفها تكلم رجلاً آخر لا أعرفه .

وكان أكثر احتراماً لنا أن نراقب أنفسنا فى الكلمة التى نطلقها حتى لا تستـهوينا لذة العبارة ، وحتى لا يسرقنا سـحر الألفاظ ، فنتبادل حباً هو عداوة ونزاول عداوة هى حب ونغرق فى مكالمات هى ترف ويلوذ الواحـد منا بالآخر فـيطمئن إليـه وهو لواذ القلق بالقلق ، ولكن خـيمـة الألفاظ الحـانية هى التى نشـرت هذا العطر الخادع المخـدر للحواس فأوحت للاثنين بأن كـلا منهما قـد وجد السكن وما هو بسكن ، وإنما هو مجرد مـحطة استراحة من لهاث الحياة العقيم .

والكلمة شيء خطير .. وهى أشبه بالشحنة تنطلق من الشفتين كالرصاص ، فتصيب وتجرح وتهدم وتخرب وتحمل مع حروفها العذاب الذى لا شفاء منه .

والله خلق الدنيا كلمة ..

والمسيح كلمة ..

وتقوم الحروب بكلمة وتضع أوزارها بكلمة .

وتقوم الساعة بكلمة وتنهد السموات بكلمة .

فالكلمة شيء كالسحر كالطلسم .. وهى إذا انفصمت عن الفعل أصبحت عبثاً وإذا تناقضت مع الفعل أصبحت نفاقاً .

فما أحلى الصمت ؟

اللهم اجعل لى صمت الجبل يحمل فى أحشائه البركان وهو صامت .. ويحمل فى باطنه الزلزال وهو هادىء ، ويحمل فى جوفه الذهب والبلاتين والماس ويبدو متواضعاً بفرش نفسه للفقراء والبسطاء .

اللهم اجعل مكالماتى معك وحدك ، فأنت وحدك الذى تعلم ولا تظلم ولا تتبدل عندك الأقوال والأحكام ولا تضيع عندك محبة .

ساخطون بلا مناقشة

السخط والرفض والتذمر والاحتجاج على كل شيء أصبح موضة اليوم بين الشباب .

أحياناً يكون الاحتجاج على الآباء .

وأحياناً على الحكام .

وأحياناً على النظام الاجتماعى .

وأحياناً على الكون كله .

وأحياناً على الله سبحانه .

كلمة لا .. بدون تمييز .. بقضية وبلا قضية بهدف وبلا هدف ..

وأحياناً لا .. للنظافة .. ولا للقيم والأخلاق .. ولا .. للعمل .. ولا .. للواجب والمسئولية والنظام .

والنموذج الجديد لهذه اللائية المتطرفة هو مجتمع الهيبيين

الذين يتناكحون على الأرصفة ، ويمارسون الشذوذ الجنسى ويتسولون ثمن زجاجة بيرة ، ويشتركون فى كل إضراب ، ويهتفون فى كل مظاهرة ، ويبصقون على كل شىء .. ويتصورون أنهم طلائع الحرية وأنهم أول مَنْ خرج من أقفاص الإنسانية .. والحق أنهم خرجوا فعلا من أقفاص الإنسانية ولكن ليدخلوا فى أقفاص القرود .

وكلمة لا .. كانت من أشرف الكلمات حينما قالها محمد ﷺ لجاهلية زمانه لأنها كانت كلمة تحمل معها النور والحق والعدل والخير .

كلمة لا .. أشادت أمة من عدم .

كانت لا .. معها رؤية جديدة وكتاب وطريق .

لم تكن معولاً يهدم وإنما كانت يداً تبنى وشعاعاً يهدى . ونحن جميعاً مندوبون لنقول لا .. للظلم .. ولا للباطل .. أما لا على وجه الإطلاق .. الثورة للثورة والسخط للسخط .. الخروج من ظلم إلى ما هو أظلم .. الخروج من خطأ بنشدان الفوضى .. تهديم كل شىء بدون رؤية .. هذه الصرخة الجديدة التى تتردد الآن فى جنبات العالم هى دسيسة دست على شبابه .. ومن ورائها عقول ماكرة تعمل فى خفاء وذكاء لإفساد كل شىء .

فى الفن ، فى الفكر ، فى الفلسفة ، فى السياسة ، فى الرواية ، فى الموضة ، فى السينما يمكن أن تلمس هذه الأيدى الخفية ..

وهذه التيارات الخبيثة للتهديم .

غياب الصورة الإلهية من الرواية والقصة .

تلك الروايات التى نراها على الشاشة أو نقرأها وكأنها الكوابيس .. ونعيش فيها ساعات ثقيلة مظلمة وكأننا فى عالم بلا إله .. ونخرج بحالة من الشك والضياع والتوهان ونحن نلعن كل شىء .

دوران الأفكار الروائية فى فلك واحد حول الجنس والخيانة واللامبالاة والانحلال وطلب اللذة بأى ثمن بهدف تحطيم روابط الأسرة .

إشاعة الإباحية باسم تحرير العواطف .

إفساد الفطرة بالتركيز على الجريمة والشذوذ .

تملق الغوغاء وتحريض الطبقات باسم الثورة والتقدمية .

استخدام الأسلوب الجميل والطرافة والإمتاع كغلاف من السيلوفان الجذاب لترويج أسوأ المضامين وأردأ البضائع الفكرية .

فكر سارتر الذى يحمل معه كل مَنْ يعتنقه إلى حالة من الغثيان والقىء والعبثية والإحساس بعدم الجدوى ، وبأن الإنسان قذف به فى الكون وترك وحده بلا عناية وبلا رعاية .

فكر فرويد الذى يحمل قارئه على الاعتقاد بأن الإنسان مجرد غرائز جنسية هائجة تبحث عن الإشباع فى النوم واليقظة وفى الطفولة والشباب والشيخوخة .. وبأن أشرف ما أبدع الإنسان من

فنون وآداب قد خرج من أعضائه التناسلية ، وبأنه حيوان يغلف شهواته بالمبررات الكاذبة . ولكنه حيوان من مولده إلى موته .. التخريب فيه غريزة والتهديم غريزة والموت غريزة .

وعلى نهج فرويد فى تفسير سلوك الإنسان بالحوافز الجنسية سار الفكر المادى الماركسى فى تفسير سلوك التاريخ بالحوافز المادية .

ثم جاء هربت ماركوز ليستفز الشباب إلى حالة رفض مطلق وثورة مستمرة لتفجير المجتمع بعد أن تكاسلت البروليتاريا عن تلبية نداء الفكر الماركسى لتهديم البنيان الاجتماعى وأخلدت إلى الترف وإلى رشوة الراحة والبقشيش السخى الذى قدمته إليها الرأسمالية الغربية .

وليست مصادفة أن رواد تلك الأفكار المادية كانوا جميعاً من اليهود ..

ثم سؤال على الهامش :

هل صحيح أن النظر المنصف إلى الوجود وتأمل الحياة فى موضوعية يؤدى بالإنسان إلى حالة من الغثيان والقىء والعبثية والإحساس بعدم الجدوى ، ويخلف إحساساً بأن الإنسان قذف به فى الكون وترك وحده بلا عناية ؟

وهل صحيح أن الإنسان يدور فى فلك أعضائه التناسلية ؟

وهل من الممكن تفسير جميع مراحل التاريخ بالصراع

الطبقى ؟ وماذا نقول فى الصراع بين روسيا والصين وكلاهما نظام واحد وكلاهما بروليتاريا .. وصراعهما مع ذلك يشكل التاريخ ؟

وماذا نقول فى فدائى يموت فى فيتنام أو القدس .. هل هو يدور فى فلك أعضائه التناسلية .. وهو الذى يضحى بجسده كله فى سبيل حق مجرد ومثاليات صرفة ؟

أما خرافة الغثيان والقىء والعبثية .. فهى عبثية عند سارتر وحده وقىء خارج من مناخ نفسى وحالة باطنية يعانيها هو .. أما الكون ، فهو برىء من العبثية ، منضبط أكثر من ساعة إلكترونية سواء نظرنا إلى الذرة وهى أصغر ما فيه أو إلى المجرة وهى أكبر عوالمه .

فى الذرة لا يستطيع إلكترون أن ينتقل من مدار إلى مدار إلا إذا أخذ أو أعطى شحنة تساوى حركته من النواة أو إليها .

وهذا هو حال الإلكترون الذى لا يعرف له جرم من فرط صغره .

وفى المجرة العظيمة تولد الشموس وتشب وتشيخ وتموت وتتحرك فى أفلاك وتدور حولها الكوكبات ، كل هذا يجرى فى دقة ونظام وفقاً لهندسة مقدرة وقوانين ثابتة لا تخرق .

أما الإنسان ، فلم يقذف به إلى الكون بلا عناية ، بل العكس هو الصحيح .. فالعناية الإلهية حفت به من لحظة ميلاده .. بل من

لحظة تكوينه فى رحم أمه .. فالعناية سلحته بجميع وسائل الدفاع التى يحتاج إليها .. سلحته بالسمع والبصر واليد والعضل والحيلة والذكاء والعقل .

وفى المخ وحده عشرة آلاف مليون خط عصبى تنقل الإشعارات وردود الأفعال طول الوقت بلا خطأ وبلا عطل .

وفى الكليتين والرئتين والكبد زيادة وافية فى النسيج العامل تبلغ سبعة أضعاف الحاجة .. وهذه الزيادة هى الاحتياطى « الاستبن » الذى وهبته العناية الإلهية لمواجهة الأعطال والطوارىء المحتملة .

ويموت فى الساعة من جسم الإنسان ستون مليون خلية تتجدد فى نفس الوقت فى تلقائية ودقة ونظام بديع .

وفى الخلية الواحدة التى تبلغ فى صغر حجمها واحداً من ألف من المليمتر .. فى داخل هذه الخلية الدقيقة نرى بالمجهر الإلكترونى مصانع ومخازن وجهازاً لتوليد الطاقة « وأرشيف » ومخاً آلياً لتنظيم هذه الأنشطة المختلفة .. كل هذا داخل صندوق هو جزء من ألف من المليمتر .

إن لم يكن هذا هو منتهى العناية من الخالق ، فماذا يكون ؟ وماذا يكون كلام سارتر عن العبثية فى الوجود وعن الإنسان الذى قذف به فى الوجود بلا عناية ؟ إلا الجرأة على الحق بعينها وإذا كان مراد سارتر بالعبثية هو ما يجرى على الإنسان من

مرض وشـيخوخة ، ثم مـوت وما يجرى على الحيـاة من كوارث وأوبئة وزلازل وبراكـين وطوفانات وحروب مـهلكة ، فهـذه كلها أمـور عـارضـــة ونحن نمرض ونصح وبدون المـرض لا نعـرف الصحـة .. والمرض هو الاستثنـاء والصحة هى القـاعدة والزلازل والبراكين والطوفـانات حوادث استثنائية وكل منها لـه وجه خير ومنافع وفـوائد . وبالزلازل والبراكـين تستـعيـد الكرة الأرضـية توازنها كل عـدد من السنين ولولا هذا التفريـج والتنفيس المؤقت لانفجرت الأرض بالضغوط الهائلة فى داخلها .

والآلام والمشقـات تربى الجلد والتحمل والمحن تشحـذ العزائم كما تربى الأمراض الوقاية والحصانة .

والشر فى الكون كالظل فى الصورة يبدو من قريب عيباً ، فإذا ابتعـدت بعينك ونظـرت إلى الصورة نظرة كليـة اكتشـفت أن هذا العيب هو ظل ، وأنه جزء مكمل للصورة .

وفى هذا يقول ابن عـربى إن نقص العالم هو عين كمـاله ، كما أن اعـوجاج القـوس هو عيـن صلاحـيتـها ولـو أنها اسـتقـامت لانكسـرت ولما رمت .. ثم إن عالم الدنيـا كله عالم عـارض زائل ، ولذلك كان شره عارضاً وزائلاً وقد جعله الله مقدمة لخير باق فى الآخرة .

والموت ليس نهـاية وإنما بداية لفـصل آخر ، وحـياة أخـرى .. والحكم علـى رواية بقـراءة سـطر واحـد منهـا لا يكون حكمـاً

صحيحاً .. وإنما يجب الانتظار إلى أن تتم الرواية فصولاً قبل أن نحكم عليها .

ثم هل يجب على الله أن يحقق السعادة للجميع ولماذا ؟ وكيف نوجب على الله ما نجهل ؟ وكيف نلزمه بطرق تفكيرنا ووجهات نظرنا ؟

وهؤلاء الذين يريدونها جنة هل يستحقونها جنة .. وهم ينفثون فيها الشر والحقد والسم في كل لحظة ؟

ويقول الغزالي في ذلك ويؤيده في رأيه ابن عربي إن الإنسان لا يجري عليه قضاء إلا من جنس استحقاقه .

« لا يظهر فيك ولا منك إلا عينك » .

بمعنى أنه لا يجري عليك من الحوادث إلا من جنس قلبك ونيتك وضميرك .

ويقول ميترلنك في هذا المعنى : « جرعتك من الماء دائماً تساوي سعة فمك . أنت لا تقابل إلا نفسك في الطريق .. إذا كنت لصاً أسرعت إليك حوادث السرقة ، وإذا كنت قاتلاً قدمت إليك الظروف الفرصة تلو الفرصة لتقتل » .

إن الله صاغ العالم على مقتضى العدل واختار بحكمته دائماً أفضل الممكنات .

وتأمل الكون والحياة لا يكشف للباحث إلا الجمال والإبداع والنظام والعدل والقانون ، ولا توجد الفوضى إلا في نظمنا نحن .

ولكن العيـون التى فيـها قذى والقلوب التـى مالت عن الحق لا ترى إلا العبث والغثيان .. ولا تعمل إلا للإفسـاد والتهديم .

هؤلاء هم فرسان الشر وطلائعه .

فلنقرأ كل ما يصل إلى أيديـنا بحذر وبعقل ناقد ، فما أكـثر ما يدس لنا من سموم يراد بها هلاكنا ..

ولنثق دائماً بأن الله كـله خير وبأن مـشيئـته كلها رحـمة ومَنْ يشك فى كلامى ، فليقرأ المقال مرة أخرى من الأول .

شق فى الحَـائط

النملة التى تسكن شق الحائط وتتجول فى عالم صغير لا يزيد على دائرة قطرها نصف متر ، وتعمل طول الحياة عملاً واحداً لا يتغير هو نقل فتافيت الخبز من الأرض إلى بيتها تتصور أن الكون كله هو هذا الشق الصغير ، وأن الحياة لا غاية لها إلا هذه الفتفوتة من الخبز ثم لا شىء وراء ذلك .. وهى معذورة فى هذا التصور ، فهذا أقصى مدى تذهب إليه حواسها .

أما الإنسان ، فيعلم أن الشق هو مجرد شرخ فى حائط والحائط لإحدى الغرف والغرفة فى إحدى الشقق ، والشقة هى واحدة من عشرات مثلها فى عمارة والعمارة واحدة من عمارات فى حى والحى واحد من عدة أحياء بالقاهرة ، والقاهرة عاصمة جمهورية وهذه بدورها مجرد قطر من عدة أقطار فى قارة كبيرة اسمها أفريقيا ، ومثلها أربع قارات أخرى على كرة سابحة فى

الفضاء اسمها الكرة الأرضية .. والكرة الأرضية بدورها واحدة من تسعة كواكب تدور حول الشمس فى مجموعة كوكبية .. والمجموعة كلها بشمسها تدور هى الأخرى فى الفضاء حول مجرة من مائة ألف مليون شمس .

وغيرها مائة ألف مليون مجرة أخرى تسبح بشموسها فى فضاء لا أحد يعرف له شكلاً وكل هذا يؤلف ما يعرف بالسماء الأولى أو السماء الدنيا ، وهى مجرد واحدة من سبع سماوات لم تطلع عليها عين ولم تطأها قدم ومن فوقها يستوى الإله الخالق على عرشه يدبر كل هذه الأكوان ويهيمن عليها من أكبر مجرة إلى أصغر ذرة .

كل هذا يعلمه الإنسان على وجه الحقيقة .. ومع ذلك ، فما أكثر الناس أشباه النمل الذين يعيشون سجناء محصورين كل واحد مغلق داخل شق نفسه يتحرك داخل دائرة محدودة من عدة أمتار .. ويدور داخل حلقة مفرغة من الهموم الذاتية تبدأ وتنتهى عند الحصول على كسرة خبز ومضاجعة امرأة ثم لا شىء وراء ذلك .. برغم ما وهب الله ذلك الإنسان من علم وخيال واختراع وأدوات وحيلة وذكاء ، وبرغم ما كشف له من غوامض ذلك الكون الفسيح المذهل .

أكثر الناس بالرغم من ذلك قواقع وسلاحف ونمل كل واحد

يغلق على نفســه قوقعـته أو درقتــه أو يختبىء داخل جـحر مظلم ضيق من الأحقاد والأضغان والأطماع والمآرب .

نرى الذى يموت من الغيرة وقد نسى أن العالم ملىء بالنساء ، ونسى أن هناك غـيـر النســاء عشـرات اللذات والأهداف الأخـرى الجمـيلة .. ولكنه سجن نفـسه بجهله وغـبائه داخل امـرأة واحدة وداخل جحـر نملة واحدة التصق بهـا كما يلتـصق بقطرة عسل لا يعرف لنفسه فكاكاً .

ونرى آخر مغلولاً داخل رغبة أكالـة فى الانتقام والثأر يصحو وينام ويقوم فى قمقم من الكوابيس ، لا يعرف لنفسه خلاصاً ولا يفكر إلا فى الكيـفيـة التى ينقض بهـا على غريمـه لينهش لحمـه ويشرب دمه .

ونرى آخر قد تكوم تحت الأغـطية وغاب فى محاولة حـيوانية لاستدرار اللذة مثل قرد الجبلاية الذى يمارس العادة السرية أمام أنثاه !

ونرى آخـر قد غـرق فى دوامــة من الأفكار الســوداوية وأغلق على نفسه زنزانة من الكآبة واليأس والخمول !

ونرى آخـر قـد أسر نفـســه داخل مـوقف الرفض والســخط والتبرم والضيق بكل شىء .

ولكن العالم واسع فسيح !

وإمكانيات العمل والسعادة لا حد لها وفرص الاكتشاف لكل ما هو جديد ومذهل ومدهش تتجدد كل لحظة بلا نهاية .

وقد مشى الإنسان على تراب القمر !

ونزلت السفن على كوكب الزهرة !

وارتحلت الكاميرات التليفزيونية إلى المريخ !

فلماذا يسجن الإنسان نفسه داخل شق فى الحائط مثل النملة ويعض على أسنانه من الغيظ أو يحك جلده بحثاً عن لذة أو يطوى ضلوعهُ على ثأر ؟

ولماذا يسرق الناس بعضهم بعضاً ولماذا تغتصب الأمم بعضها بعضاً والخيرات حولها بلا حدود والأرزاق مطمورة فى الأرض تحت أقدام مَنْ يبحث عنها ؟

ولماذا اليأس وصورة الكون البديع بما فيها من جمال ونظام وحكمة وتخطيط موزون توحى بإله عادل لا يخطىء ميزانه .. كريم لا يكف عن العطاء ؟

لماذا لا نخرج من جحورنا .. ونكسر قوقعاتنا ونطل برءوسنا لنتفرج على الدنيا .. ونتأمل ؟

لماذا لا نخرج من همومنا الذاتية لنحمل هموم الوطن الأكبر ثم نتخطى الوطن إلى الإنسانية الكبرى .. ثم نتخطى الإنسانية إلى

الطبيعة وما وراءها ثم إلى الله الذى جئنا من غيبه المغيب ومصيرنا أن نعود إلى غيبه المغيب ؟

لماذا ننسى أن لنا أجنحة ، فلا نجرب أن نطير ونكتفى بأن نلتصق بالجحور فى جبن ونغوص فى الوحل ونغرق فى الطين ونسلم قيادتنا للخنزير فى داخلنا ؟

لماذا نسلم أنفسنا للعادة والآلية والروتين المكرور وننسى أننا أحرار فعلاً .

لماذا أكثرنا نمل وصراصير ؟

الصدق والكذب

- نشاطركم الأحزان .

- للفقيد الرحمة ولكم طول البقاء .

- دموعنا لن تجف حتى نلتقى .

- إلى جنة الخلد مع الأبرار القديسين .

- خسارتنا بك لا تعوض .

- ذكراك العطرة تملأ قلوبنا .

- نرثيك وبدموع الحسرة نبكيك .

- خالص العزاء ولكم الصبر والسلوان .

- تشرب سيجارة .

- متشكر باشرب إنجليزى .

- آدى حال الدنيا .

- مين بيخلد .

- ترك فدانين وفيللا فى المعادى .

- مراته حاتورث ع الجاهز .

- هى الوليه التخينة اللى هناك اللى بتاكل بسطرمة .

- عينها تندب فيها رصاصة .

- كانت دايماً تقول عليه نسناس .

- صورتك فى خيالى يا أبى لن تفارقه .. بنتك أمينة .

- نم بين أذرع الملائكة يا حبيبى ورحمة الله ترعاك .. زوجتك الوفية .

- الحزن يدمى فؤادى واللوعة عليك تحرقنى .. أختك أزهار .

- الحياة بعدك مستحيلة .. لن أسلوك أبداً .. ولن أنسى عطفك وحسن رعايتك .. ابنك فتحى .

- مين اللى بتعيط بحرقة هناك .

- واحدة ما حدش يعرفها ولا تعرفشى حد .

- بتلطم وبتقول بنتى حبيبتى .

- بتعيط على حاجة تانية .

- كل واحد بيندب على نفسه .

- مراته بترقع بالصوت الحياني .. عشان تهضم البسطرمة .

- يا شيخ حرام عليك .

- هى دايماً بترقع بالصوت الحيانى فى كل مناسبة .. لما تضيع منها بكرة الخيط ترقع بالصوت الحيانى .. لما يعطل الأسانسير ترقع بالصوت الحيانى .. لما تقع كباية ترقع بالصوت الحيانى .

- بتقول يا سبعى .

- ولو طلع من التربة تأكله وحياتك .

- أعوذ بالله إنت فيه بينك وبينها إيه .

- أصله كان دايماً يشتكى لى منها الله يرحمه وكان يهرب منها ويبجى يبات عندى ويقعد طول الليل يندب حظه ويقول مفيش حد يخلصنى من الولية النكد اللى بتصرخ ليل نهار زى الكلاكس دى .. دنا ساكن فى جراج مش بيت .

- أهو ربنا خلصه .

﴿ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ

أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾ [يس]

– الفقى بيقرا وما حدش بيسمع .

– وكل واحد بيهز رأسه ويقول الله .

– حتى الفقى عقله فى حاجة تانية غير اللى بيقولها .

– صدقت .. لو كان عقله فى اللى بيقوله ما كانش قعد يلعلع كده وكان خشع شوية .

– حاجة عجيبة ! والله أنا صعبان علىّ الميت .. ولو كنت أنا الميت دلوقت كنت حابقى زعلان قوى على نفسى .. تصور يعملوا لى شادر ومندبة وملطمة ويوزعوا قهوة سادة على روحى .. ومفيش واحد منهم بيفكّر فى روحى .. طيب كان لازمته إيه .. طيب ما يدفنونى وخلاص ما دمت بالنسبة لهم اندفنت وانتهيت .. إيه لازمته المورستان ده ؟

– كل واحد عاوز يحس بأنه زعلان وأنه أدى الواجب .. إنت عاوز تنكد عليهم ليه يا أخى .. إنت عاوز تموت على كيفك .. المأتم ده معناه كل واحد جاى يموتك على كيفه .. فاهم .

– لا مش فاهم .

– أما تموت بإذن الله حاتفهم .

– حاكتب وصية إن ما حدش يكتب حرف أو يقدم نقطة قهوة على روحى .

– شعاع الشمس تجسد فيك .. أنت نور حياتى الذى لا يغيب .. أنت فى سواد العين .. أنت فى شغاف القلب يا حبيبى .. اسمك تسبيحتى .. خيالك غرفتى .. ابتسامتك وسادتى التى أغفو عليها .. أنفاسك عطرى المحبب .. كلماتك مصحفى المقدس الذى لا يفارقنى .. ذكراك تاريخى ، أيامك حياتى كلها .. لن أنساك أبداً .

حبيبتك الحافظة لعهدك حتى الموت

– تفتكر كانت بتحبه .

– كلامها حلو .. مؤكد كانت بتحبه ساعة ما كتبت الكلام ده .. لكن بعد كده ما اعرفش .. كل شىء جايز يتغير فى دنيا القلوب .. بيسموها قلوب لأنها تتقلب .

– ألا يوجد شىء باق ؟

– الله باق .

■ ■ ■

كنا عائدين من أداء الواجب حينما قال لى صديقى :

– أنعيش فى كذب دائم ؟ ألا يوجد صدق ؟

قلت له :

- بل نحن نصدق دائماً ولكنه صدق محدود ، صدق لحظتها .. كلماتنا عمرها عمر الرسم على الماء والنقش على الرمال .. وهى فى العادة صادقة فى حدود هذا العمر القصير إلا فيما ندر .

- وبعد ذلك .

- بعد ذلك تتغير الظروف وتتبدل الملابسات وتمتحن العواطف والأقوال والأعمال .. وتبتلى النفوس فى جواهرها وتتقلب القلوب.. ويأتى بعد الليل النهار وبعد النهار الليل .. فنحن على أرض تدور .. أليس كذلك ؟

- ألا يوجد حب يصمد للامتحان ألا يوجد حب باق ؟

- أحياناً .. ولكن هذا الحب الباقى فى العادة تعيا عن حمله الكلمات .. والذى يحب هذا الحب إذا حاول أن يعبر عن نفسه لا يخرج منه إلا كلام عبيط .. أو عبارات بلا معنى .. ومثل هذا الحب يكون فى أغلب الأحوال أزمة فى الصدر وعطشاً خلف الضلوع لا ارتواء له ولا حل له .

- إنى أتمنى أن تحبنى امرأة هذا الحب .

- إنى لا أتمنى أن تحبنى امرأة هذا الحب أبداً .

- لم ؟

- لأن المرأة التى تحب هذا الحب لا تسامح .. إنها ترى نفسها

قد أعطت روحها فلا أقل أن تأخذ روحى والذين يحبون هذا الحب هم بين قاتل ومقتول وأنا لا أحب أن أكون أحدهما .

– بل هو الحب الرائع .

– بل هو الإشراك بعينه وعبادة المخلوق من دون الخالق ، وهذا ما قاله الإمام الغزالى فى حب المرأة الواحدة إذا كان استغراقاً وصبابة .. قال إنه السقوط فى الشرك .. ولهذا أباح الإسلام تعدد الزوجات ليحول دون هذا الاستئثار .. وحتى لا يكون التوحيد إلا لله .

– وهل تظن أنك تختار قدرك .. ألا يمكن أن يداهمك هذا النوع من الحب برغم أنفك ، فلا تملك منه فكاكاً ؟

– إنه يكون مصيبة .. وكارثة وأسراً .. وسجناً .. وأغلالاً .. ومثل هذا الحب لا يكتبه الله إلا على عبد غضب عليه ولعنه وأضله وأرجو ألا أكون من المغضوب عليهم ولا من الضالين .. وأرجو أن أعرف معبودى فلا أضل عنه وأنه هو الله وحده جامع الكمالات .. الأجمل من كل جميل .. مهوى الأفئدة وسكن الأرواح .

– وماذا للمرأة المثلى عندك ؟

– لها عندى المودة والرحمة والصحبة الطيبة .. ولا أكثر .. لا غل ولا قيد ولا أسر .. وإنما ضيافة كريمة يستضيف فيها كل منا الآخر مدى أيام الدنيا الشقية ويعاونه على تحملها .

- سوف أعيش وأفرح فيك وأراك بإذن الله فى الأسر والغل والقيد غريقاً لشوشتك فى أذيال امرأة حتى تتوب عن تعذيبنا .

- تبت .. ولا داعى للبلاء .. اللهم لا تدخلنا فى تجربة .. اللهم لا تكتب علىَّ إلا حبك .

- وهل يتنافى حب الله مع حب الناس ؟

- بل هو يدعو إلى حب الناس ولكن بلا غل وبلا قيود وبلا عبودية حب المودة والرحمة لاسعار الغرام وضرام الشهوات .

- وهل يمكن أن يغنيك حب الله عن الحاجة إلى غرام بشرى ؟

- نعم إذا استطعت أن أفهم معنى النظر إلى وجهه ومعنى أن كل شىء هالك إلا وجهه .. ومعنى أن عشق الهالكين هو الهلاك معهم وأن فى حبه وحده الخلاص والعتق والحرية .

- وكيف تنظر إلى وجهه ؟

- أستشفه فى صدح الطيور وفى نور الفجر ، فى جناح الفراش وفى بصمة الأصبع وفى عطر الوردة وفى العدل المستتر وراء الألم والحكمة الخافية فى العذاب .. وأشعر به فى استسرار الليل وإبهام الموت وطلسم القدر .. وأحس به فى الحقائق التى تُلقى فى عقلى بلا لغة وبلا عبارة وفى السكينة التى تسعفنى ساعة الخطر وفى الوضوح الرائع الذى يتجلى علىَّ

لحظة الأزمـة .. وفى الإحساس الحـميم بالـصحبـة والونس وأنا وحدى ، وفيما هو أكثر من ذلك من لطائف الأسرار التى يمكن أن تحدث بين العبد وربه مما لا يكتب ولا يقال .

– أهناك شىء لا يمكن أن يقال ؟

– كل ما هو مطلق لا يمكن أن يقال .

– وكيف نعرفه ؟

– لا نعـرفه ولكن نكـابده .. إحســاسك بذاتك مكابدة وليـست معرفة ومع ذلك ، فهى أعلى من جميع المعارف فى درجة اليقين .. ذاتك أمـر لا يرقى إليـه شك .. ومـع ذلك ، فـهى أمـر لا يمكن أن يتـوضح كمـا تتـوضح سائر المعـارف .. والحـقائق العـليا كلهـا مكابدات وليست مـعارف .. والمتصـوفـة يسمون هذا الإحـساس بالله .. حضوراً .. وحضرة .

– وهل يمكن أن نصل إلى هذه الحضرة بالاجتهاد ؟

– لا نستطيع إلا أن يساعدنا هو .

– وهل دخلت هذه الحضرة ؟

– أنا أبعد الناس عن هذا الشـرف ، أنا حالى مثل حـالك ومثل حال المرحوم الذى دفناه اليوم ومثل حال الخطائين الذين يتقلبون مع الليل والنهار . ولكنى أحاول ،.. مجرد محاولة.

هل كان لنا وجود قبل أن نولد ؟!

يلازمني إحساس منذ بدأت أعي وأدرك وجودي أني كنت موجوداً دائماً وأني حقيقة ولست أمراً طرأ بالميلاد ، وأني كنت هنا أو هناك في مكان أو لا مكان لست أدري .. إنما هو إحساس دائم ومؤكد بالحضور لا أعلم كنهه ومصدره .. وكل ما يحدث أمامي الآن هو مرور شريط متتابع لأحداث متتالية لماض وحاضر ..

وهو شريط يمر أمامي ولكني في الأعماق خارج عن هذا الشريط واقف على عتبة حضور مستمر وآنية مطلقة لا تعرف تزامناً .. أراقب تصاريف الزمن أمامي عن بعد ، وأراقب طفولتي وصباي وشبابي وشيخوختي دون أن تدركني أنا أي شيخوخة فأنا .. ذاتي .. شباب دائم .. وحضور دائم .

ويؤيد هذا الإحساس الداخلي حقائق الدين التي تقول إني أحاسب وأعاقب وأموت فلا أموت وإنما أنتقل إلى حياة برزخية ،

ثم إلى بعث ثم إلى خلود فى نعيم أو خلود فى شقاء ..

فأنا إذن خالد ..

وأنا لست مسألة طارئة استجدت بالميلاد وستنتهى بالموت ولو أنى كنت أمراً طارئاً زائلاً لما كنت حقيقة ، بل مجرد ظاهرة موقوتة ، تلمع ثم تختفى فلا تعود ، ولا تصبح هناك حكمة فى بعث وحساب وعقاب .. وعلام العقاب ولا حقيقة هناك ..

وفى القرآن الكريم إشارة خاطفة إلى هذه السابقة الوجودية قبل الميلاد :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) ﴾ [التين]

ومعنى ذلك أنه كان هناك خلق أولى على أحسن تقويم ..

وهذه الخلقة لا يمكن أن تكون خلقتنا التى نعرفها فى الدنيا بجسمنا الذى يتعب ويمرض ويتلف ويشيخ ويموت .

والله يصف كمال خلقة السماء فيقول : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) ﴾ [ق]

أى ليس بها ثغرات أو نقاط ضعف ومع ذلك ، فقد جعل الله فى خلقتنا فرجاً وثغرة هى مدخل الشهوة والهوى ، بل إنه سمى هذا الفرج سوأة وعورة وقال فيما فعل إبليس بآدم وحواء بأنه

﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

فكيف يكون الخلق الذى جعله الله فى أحسن تقويم به ثغرة وسوأة وعورة ، ولماذا سمى حياتنا هنا بالحياة الدنيا [أى الواطئة والسافلة] ، إلا أن تكون تلك الحياة هى أسفل سافلين التى رددنا جميعاً إليها بعد النشأة الكاملة فى أحسن تقويم .. أهبطنا الله فى هذه الجبلة الطينية التى بها الفرج والسوأة لنعيش حياة الابتلاء والمعاناة والمكابدة .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد] ، يحرمنا مما نحب ويحملنا ما نكره ليرى كيف يكون صبرنا واحتمالنا ولتظهر بذلك صفاتنا .

وإنما يظهر الإنسان على حقيقته إذا حرم مما يحب ، وإذا حمل ما يكره ، فهنا تتفاضل النفوس فهناك نفس تحمد وتشكر ولا تعترض وتفوض الأمر إلى الله وهناك نفس تعاتب ربها وتحتج .. وهناك نفس تسب الملة والدين وتتشاجر مع الله ومع الناس .. وهناك نفس تتعجل ، فتسرق وتقتل وتعتدى لتصلح حالها وتنهى حرمانها ..

وهكذا تتفاضل النفوس وتظهر الحقائق ، ومن أجل هذا خلق الله الدنيا وأنزلنا الله هذا المنزل فى أسفل سافلين لتظهر لنا حقائقنا.

ومـا خلـق الله السـمـوات والأرض إلا بـالحـق وللـحـق ولإظهار الحق وفـى آيـة أخرى يقـول : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان]

ولقد فـهم السلف « شد الأسر » بأنـه أشبه بشـد دعائم البناء وتقويتـه .. ولكنى أقول ولماذا لا نأخـذ المعنى على ظاهره بأن الله وضعنا فى الأسر فى أسر هذه الجـبلة الطينية وشد وثاقنا وبهذا أنزلنا من مرتبـة الخلق فى أحسن تقويم إلى عالم أسـفل سافلين وهو إهبـاط عام لا استـثناء فيـه .. وإنما استـثناء الصالحـين فى الآية .. هو استثناء فى الأجر بعد الموت .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) ﴾[التين]

فالصالحـون أيضاً يردون معنا إلى أسـفل سافلين ولكن لأنهم صـبروا واحـتـسبـوا وسـابقـوا إلى الخيـرات ، فلهم بعـد الموت والخروج من عالم أسفل سافلين أجـر غير مقطوع فى الجنة . أما المجرمـون ، فمصـيرهم بعـد الخروج من أسفل سـافلين بالموت ، العقاب بأسفل سافلين أخرى هى العذاب الأبدى فى الآخرة .. فهم فى أسفل سافلين أبداً ..

ثم إننا نرى إشارات أخرى لهذه السـابقة وهذا الوجود العلوى فى أحسن تـقويم قبل النـزول إلى الأرحام ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ

لِتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. ﴿٨١﴾ [آل عمران]

أين وكيف جمع الله النبيين وأخذ عليهم الميثاق مجتمعين ونحن نعلم أنهم جاءوا إلى الدنيا متفرقين متباعدين بالموت والميلاد إلا أن تكون تلك الجمعية حدثت فى عالم آخر ومستوى آخر من الخلق ؟

ثم لماذا يقول المجرمون يوم انكشاف الحقائق ساعة البعث والحساب ، ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر]

متى كانت هاتان الموتتان ونحن لا نعلم ولا نرى إلا ميتة واحدة .

إن هذا الكلام وثيقة مهمة تؤكد وجود حياتين وموتتين .. ومعنى الموت ليس الإعدام والملاشاة ولكن النقل من حال إلى حال ، فالله يسمى النقل من الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية موتاً وإماتة.

وبهذا المعنى يمكن أن نفهم الإماتة الأولى المذكورة فى الآية بأنها كانت الإماتة عن الخلق الكامل فى أحسن تقويم وإنزال النفوس فى الأسر .. فى أسر الجبلة الطينية تعيش وتكابد بفروجها وسوآتها فى أسفل سافلين .

ثم تأتى الموتة الثانية بالنقل من هذا الحال من البلاء إلى حال الحياة البرزخية فى القبور .. ثم يكون الإحياء الحق بالنفخ فى

الصـــور والبعث .. فـتلك حـيـاتان « حيـاتـنا الأولى فـى أحـسن تقويم وحياتنا فى الآخرة » ولا تحسب الحياة البرزخية فى القبور حيـاة لأنها حـياة ناقصـة شـبحـية وكذلك حـياتنا الدنيـا ، فهى الأخرى ناقصــة وفانية وزائلة ومعـيبة .. ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ .. (٣٩)﴾ [غافر]

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] أى لهى الحياة الكاملة الحقة .

وحياتنا الدنيا التى خـيل إلينا أنها سنوات طويلة مديدة سوف نرى حين البعث أنها لم تكن أكـثر من ساعة من نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ .. (٣٥)﴾ [الأحقاف] فهى إذن حيـاة لا تسـاوى شيـئاً ، فنحن إذن أمام حـياتين كـاملتين : حـياتنا فى أحـسن تقويم قـبل الميـلاد وحـيـاتنا فى الآخرة بعـد البعث .

ثم ذلك المشهد الذى اسـتخرج فيـه الله ذرية آدم من ظهره قبل ميلادها وقبل مجيئها وأشـهدها على ربوبيته ، فاعترفت وشـهدت بذلك .. متى وأين وكيف كان ذلك ؟

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا

فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ [الأعراف]

فذلك كلام وحوار بين الله وبين كل نفس .. منفردة أو الكل مجتمعين .. الذرية كلها .. لا أحد يدرى .. يقول فيه رب العالمين .. هأنذا قد جئت بالابن قبل أن يولد من أبيه .. حتى لا تقولوا إنما أضلنا الآباء فضللنا من بعدهم .. بل هأنتم قد أحضرتكم من قبلهم .

« وذلك قلب لمفهوم الزمن وإتيان بالمستقبل قبل الحاضر » ولا ندرى أين ومتى وكيف كان هذا الإشهاد ؟

وقد أقرت جميع النفوس وقالت : بلى شهدنا يا رب . ثم الحديث النبوى الثابت والصحيح الذى يقول فيه النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « كنت نبياً وآدم يجدل فى طينته » فهذا إذن وجود سابق وخلق سابق على الميلاد ، وقد فهم منه الصوفيون نظريتهم التى يرددونها فى الحقيقة المحمدية .. فمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن جاء آخر الأنبياء فى البعث إلا أنه خلق أولهم بالحقيقة وذلك هو الخلق النورانى فى أحسن تقويم .

ويلزم القول إنه أمر لم ينفرد به النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل إن لكل منا حقيقة سابقة على ميلاده هى خلقه النورانى الأولى قبل النزول فى الطين والخلق فى الأرحام .

كلنا كانت لنا سابقة وكنا حقائق قبل أن نصبح أجساداً .

والسؤال الأكبر .. هو : ماذا قبل ؟ وماذا كنا قبل خلقنا فى أحسن تقويم وقبل تسويتنا شخوصاً نورانية ؟ وهل كنا عدماً معدوماً ؟ إن الله يقول : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم] فنفى الله عنا الشيئية ولم ينف عنا الهوية بل إنه ليؤكد لنا هذه الهوية قبل الخلق فى آية أخرى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]

فهذا المخلوق إذا أردناه نقول له كن فيكون . فكلام الله يتوجه إلى هوية فى العدم . (نقول له) « لمن .. تلك هوية كائنة قبل أن تخلق وهذا توكيد بأنه كانت لنا هوية فى العدم وإننا لم نكن معدومين قبل تسويتنا فى أحسن تقويم « أين كنا ؟ وأين كان ذلك ؟ » .

يقولون فى العلم الإلهى المحيط الذى لا يعزب عنه ذرة ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة .

كنا أسراراً مكنونة معلومة فى خزينة علمه بشخوصنا وحقائقنا وخيرنا وشرنا وطبائعنا وفى ذلك يقول ابن عربى :

إن التشخص أزلى وليس عارضاً وهو يسمى هذه الأسرار المكنونة فى خزينة العلم الإلهى وفى كنوز الجود .. يسميها « الأعيان الثابتة » .. ويقول إنها قديمة وأزلية وليست بجعل جاعل .. أى أن الله لم يتدخل بجعلها على هذه الحقيقة أو تلك

ولهذا يقول ابن عربى إن الله يخاطب المجرمين يوم القيامة قائلاً :

« ما حكمنا عليكم ولكن هكذا كنتم » .

أى هكذا كنتم أشراراً من الأزل لم أخلق فيكم شراً وإنما وضعتكم فى منازلكم ومراتبكم .. لم أحكم على أحد بظلم ولو عرفتمونى وسألتمونى الفضل لأعطيتكم ولكنكم أنكرتمونى ورفضتم رحمتى ورددتم يدى الممدوة وقطعتم الحبل بينى وبينكم فى الدنيا وناديتكم فلم تسمعوا وواعدتكم فلم تلبوا .

وتلك منتهى الحرية والمسئولية لا جبر ولا قهر على شىء .

الكل تلقى النداء والكل امتدت إليه اليد بالرحمة وألقيت إليه النذر وحفت به الملائكة تدعوه بالخواطر الطيبة وجاءه الرسل والأنبياء والكتب والمذكرون والمعلمون .

والذى لم يتيقظ من غفلته حاولنا إيقاظه بالبلاء وبالمكاره والمصائب حتى استنفدنا معه الأسباب .

تلك حياة ممتدة إذن .. ووجود ممتد .. له فصول .. فصل بعد فصل وخلق بعد خلق .. لم ننقطع عن الحضور لحظة منذ الأزل وإنما ظللنا فى انتقال من حال إلى حال .. لم يكن أمرنا أبداً عدماً معدوماً .

ألهذا يحدث دائماً أن نحب أحداً دون مقدمات .. أو ننفر منه

دون مقدمات ؟ أيكون هذا الشعور لمعرفة سابقة ولقاء سابق قبل الميلاد فى ذلك الغيب الأول ؟ أهى ذكرى باهتة لتلك النفوس التى تعارفت وتنافرت وتحابت وتناكرت منذ الأزل ؟ ألهذا يكرر القرآن الكريم دائماً ؟

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾ [الأنعام] ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية] ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) ﴾ [يس] ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾ [المدثر] ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [المدثر] ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) ﴾ [الفجر] ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) ﴾ [النازعات] ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ [الأعلى] ﴿ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود] وكل القرآن ذكر وتذكير وتذكرة وذكرى .

ومشهد استحضار الذرية من ظهر آدم قبل ميلادها وإشهادها على الربوبية تذكير وتصوير وتجسيد إجبارى عملى واقعى لهذه القصة التى سوف تتعدد فصولاً ..

أتعنى تلك الآيات أنه كانت لنا حياة قبل أن نولد .. ؟ الله أعلم بكتابه .. ولا أدعى تفسيراً .. إنما هى محاولة فهم قد تكون خاطئة والأمر يصيب الإنسان بالخوف والرهبة والخشية والدوار إذا

استجمعه كله فى ذهنه .

فما خلق الله السموات والأرض ليـلهو وما خلق الإنسان سدى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) ﴾ [الدخان] ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ .. (١٩١) ﴾ [آل عمران]

والأمر جاد ولا عبث هناك ، ولا ندرى متى يأتى الموت وتنصب الموازين وتنكشف الحقائق وتهـتك الأسرار . وإدمان التأمل يورث الرجفة فى القلب .

ماذا فى سرائرنا ؟ وماذا تخفيـه الضمائر ؟ وماذا تبطن النيات وهل تستخفى فى صدورنا الحمائم أو الأفاعى ؟

لهذا خلقنا الله وخلق لنا الدنيـا ونقلنا فى الأحوال وداول علينا الأيام والليالى ليكشف لنا المستور والمكنون والمكتوم من نفوسنا . ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ويصعب على البعض أن يتصور أنه كانت له سابقة قبل ميلاده ومع ذلك ، فنحن نرى الأطفال الرضع يتفاضلون بخيرهم وشرهم منذ ميلادهم ، فمنهم مَنْ يعض الثدى فى شره عدوانى ومنهم مَنْ يربت عليه فى حنان .

يفعل كل منهم ذلك ابتداءً وليس كرد فعل على البـيئة ، فالبيئة

واحدة في الحالتين وهي الأم .. والأم تدرك هذا فتقول إن هذا طفل شرير وهذا طفل طيب لقد جاء كل منهما بشخصية مختلفة وأقبل على الدنيا بخيره وشره وبدأ يتصرف على وفاق حقيقة سابقة .

ألم يقل عيسى وهو فى المهد ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)﴾ [مريم]

والسؤال .. متى أتاه الكتاب .. ومتى جعله نبياً ومتى جعله مباركاً ومتى أوصاه .. وهو يتكلم فى المهد لم يكد يلقم الثدى بعد.

هذا الكلام صريح ومباشر عن أمر سبق فى مستوى من الخلق سبق . والمتكلم وهو عيسى من البشر وليس الله لنقول بالتعالى على الزمن ومحو الحدود بين ماضٍ وحاضر ومستقبل . المتكلم هو عيسى بحدوده البشرية وتقيده بالزمان والمكان .. فإذا قالت الآية بماضٍ ، فهو ماض لا شك فيه .

وإذا قال المتكلم إن الله أوصانى .. فإن المعنى المباشر والبسيط يجب أن نفهم منه أن الله أوصاه فى الماضى .. « قبل مولده » .

وإذا قال إن الله آتاه الكتاب .. فإن المعنى الذى يجب أن يرد على الذهن أن الله قد آتاه الكتاب فى الماضى قبل مولده .

ذلك هو مدلول اللفظ العربى .. ونحن لا نتجنى على الألفاظ

ولا نلويهـا ولا نخرجهـا من مدلولاتهـا والكلام عن الحيـاة الدنيا بأنها لعب ولهو ، وبأنها مجرد متـاع وبأنها مجرد ساعة من نهار ليس من عندنا بل من عند الله خـالق هذه الحياة ، فـهى لا تساوى عند خالقـها شيـئاً بالنسبـة لعظمة الحيـاة وكمالهـا فى الآخرة .. فالحيـاة بحق هى حياة الآخرة وهى التى تحـسب ويؤخذ لها ألف حساب وحساب .

وحكم هذه الدنيا أشبه بحكم بروفة مسرحية ، فهى مهمة فقط من حيث ابتـلاء الممثلين واختبـار قدراتهم ولكن لا اعتبـار لها فى النهاية وإنما الاعتبار كل الاعتبار للعرض النهائى على الجمهور .

أما تصور البـعض أن الإنسان بخلقته الحـالية .. ذلك الإنسان الذى يبول ويغـوط ويتمـخط ويتعب ويمرض ويشـيخ وتصيـبه المعـاطب والمتـالف من كل جـانب .. تصـوره أن هذه الخلقـة هى أحـسن تقويـم ممكن .. وأنها هـى المـقصـودة بالخلق على أحـسن تقويم .. فـهذا رأى لن يوافـقه عليـه الكثير .. ونحـن لا نخرج عن مدلول اللغة حينما نتصـور حالة أكمل من الخلق سبقت .. ثم جاء هذا الخلق الدنيـوى ، فوضع الله مدخـلاً للهوى والشـهوة فى هذا الإنسان ليمتحن صلابته وإيمانه .

وفى النهايـة نحن أمام آيات تحمل أكـثر من وجـه ومن وجوه التفسير .

ولا يستطيع أى طرف أن يدّعى بـأنه وضع يده على سرها أو علم مـراد الله منها .. فـلا يعلم مراد الله إلا الله وإنما يجـتهـد الكل ويحاول الكل والمحاولات جميعـها تحتمل الخطأ والصواب والعلم عند الله وإعمال الفكر فى القرآن ضرورة وليس ترفاً .

والتفكير فى السـابقة والخاتمة لا يشغل المسلم عن أمر مـفيد ، فهـو عيـن الذكر وعـين الفائدة .. وهو يورث فى القلـب الخشـية والتقوى .

نعم إن الأمـر صـــدق وحق .. ولا شىء يســتـحـق البكاء من الإنسان أكـثر من خطيئتـه ولا شىء يستحق أن يتـمزق له القلب أكثـر من أن يخطىء وهو يعلم أنه يخطىء ويتـردى وهو يعلم أنه يتـردى ، إنه لأفـضل له أن يتـمـزق ألف قطعـة كل قطعـة تتـألم وتتـعــذب ولا يرتكب الخطأ ولو علـمنا لما طلبنا مـن الله سـاعـة السجود إلا طلباً واحداً .. ألا نخطىء ..

وذلك هو العلم الذى هـو بداية التـقوى ، وذلـك هو العلم الذى يبدأ على حافة الرعب .

حينمـا يفكر العقل فى المبـدأ والمنتهى والغاية ، فـيخر سـاجداً وهو يرتجف .. سبحانك .. سبحانك .. مغفرتك .. رضوانك ..

الفهـــرس

رقم الإيداع
٢٠٠٣/٥٠٥٦
الترقيم الدولى
977 - 08 - 1103 - 3



قطاع الثقافة



